

لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
<https://palstinebooks.blogspot.com>

مخافى جانبرلاد

محمد فرید ابو حدید

جھانی جانیولاد

۲۲

اقرا

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبها بمصر
بمعاونة الدكتور حسين بك وأنطون الجليل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



جميع الحقوق محفوظة
لطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

خرجت من وطنى (ماهوش) أسير كالأعمى والأفكار
تحتوشنى من كل جانب والأنفاس تكاد تمزق صدرى . ونظرت
حولى فرأيت ربوة (ماهوش) الخضراء تبسم للصباح إذ تلقى
عليها الشمس أول شعاعها الذهبى . ورأيت سماءها والسحب
تزخرف أطرافها بنسيج سحرى من الفضة والذهب واللؤلؤ
والياقوت . هذه السماء هى التى ملأت قلبى تسبيحاً وعلمتنى من
المعانى ما تعجز عنه كتب الفلاسفة ومباحث العلماء . وألقيت
نظرى على سهل (ماهوش) إذ تنحدر إليه الجداول الصافية
تتدفق من عيون رائقة باردة تنبع من قمة الربوة ثم تسير فى
جداولها التى تلمع فى قيعانها الحصباء كأنها الدرر انقرطت من
عقود الحسان . ورأيت بيوت (ماهوش) على سفح الربوة كأنها
القوافل التى تحمل الأفاويه من بلاد الهند هابطة من جبال الپامير
إلى هضاب إيران . وتتخللها البساتين بما فيها من نبت بين قصير

وطويل و بين مورق ومجرد قد تداخلت ألوانها وتشابكت فروعها
وتعانقت أغصانها واهتزت للنسيم الوديع .

هذه (ماهوش) لذة العين وبهجة القلب وشفاء الصدر
أغادرها وأهاجر منها لأضرب في الآفاق . فناديت من
أعماق قلبي « يا نفس تجلدي ويا عين اغمضي ويا فؤاد التمس
النسيان ! » ثم سرت في الطريق أفكر فيما كان من شقائي في
وطنى الحبيب القاسى الذى لم أجد لى فيه مكاناً ، وفيما يكون من
مصري إذا أنا ذهبت فى الأرض الفسيحة ، وما أنتظر أن أقاسى
بها فى غربتى . وماذا يلاقى الغريب غير أوجاع الحنين والوحشة
فى الحياة ؟

وفى كنت فى طريقى مطرقاً مفكراً أفقت على صدمة عنيفة
دفعتنى إلى جانب الطريق ، وكادت تقذف بى إلى النهر الصافى
الذى ما زال منذ الأبد القديم يجرى غير مبال إقامة الناس فى
ماهوش أو خروجهم منها . ولكنى تماسكت وتعلقت بشجرة
قريبة ، وتلفت حولى لأرى ذلك الذى كاد يحطمنى بصدمته
وامتلاً قلبى غماً وتشاءمت برحلتى ، فهذا أول الطريق أصطدم فيه
وأخبط بمثل هذه الخبطة الشديدة . فرأيت فارساً من هؤلاء أصحاب

القلانس العالية الذين يحسنون الانتفاش في ملابسهم الزاهية ،
ينظر نحوي كأنه ينتظر مني أن أشكره على صدمته . فاعتراي
إحساس لا أستطيع وصفه إلا بأنه مزيج من الخوف والغضب .
فإني رجل لا أحب الحروب ولا من يخوضونها ولا أطيق
أن أرى دجاجة تذبح تحت ناظري . فكيف بي وقد رأيت
أمامي رجلا من جنود تيمور الذين يملأون الأرض دماء ! !
كانت نظراتي إلى الفارس تم عما كان في نفسي ، ووقفت
أتأمله وكان منظره في الحق عجيبا . كان مثل البيغاء في زينته
الكاملة : من قلنسوة حمراء فوقها ريشة زرقاء من تحتها عباءة
صفراء تغطي ملابس أخرى لا أعرفها بيضاء وخضراء ، ولف
على وسطه منطقة سوداء ودلى في جنبه سيفاً مقوساً منقوشاً بالذهب
والفضة مرصعاً بالجواهر ومن تحته وتحت كل زينته جواد كريم
لا يقل في ألوان زخرفته عن صاحبه . فقلت في نفسي « سبحان الله !
ما هذا كله ؟ » وجعلت أصعد فيه بصري وأصوبه من أعلى ريشته
إلى حافر جواده ، وأحسست أن خوفي وغضبي قد تبديلا وامتلا قلبي
ضحكا . فتبسم الفارس وأخذ يكلمني بلغة لم أفهم منها إلا يسيراً
بعد لأي وتكرار ، ففهمت منه أنه يريد أن يعرف من أنا . فقلت

له أريد أن أصرفه وأتجه في سبيلي : « أنا فقيه . » ثم هممت بالسير. فهمز جواده يسايرني وقال وفي صوته رنة السرور « فقيه ؟ » فهزرت رأسي أن نعم ومضيت في سبيلي . ولكنه كرر سؤاله في اهتمام . فخشيت أن ينخدع الرجل عن حقيقتي وهو لا يعرف لغتي ؛ فلعل لهذا اللفظ « فقيه » معنى آخر عنده مثل تاجر أو صيرفي أو جوهرى ، فيحسب خطأ أنني ممن يطمع فيهم رفاق الطريق فيبادر بإيقاع الأذى بي ، ولن يعزيني بعد ذلك أنه سيكشف خطأه حين لا فائدة لي من كشفه ، فإن أسفه لن يكون إلا عزاء ضئيلاً لي . فبادرت قائلاً : « أديب » واخترت هذه الكلمة لأنها معروفة للناس جميعاً ولا تحمل لبساً ولا يختلط على أحد معناها ، فكل الناس يعرفون من هو الأديب . ولكن الفارس لم يعجبه هذا اللفظ وكرر الكلمة الأولى سائلاً « فقيه ؟ » . فمألت عيني منه وتنازعتني الخوف والضحك حيناً ، ولكني رأيت أنه قد بدأ يعبس ، فخفت إن ضحكت أن يغضب ، واكتفيت بأن هزرت رأسي له بالإيجاب وفوضت أمري إلى الله . فأسرع الرجل فنزل عن جواده وفتح لي ذراعيه ، وأقبل على يضمني إلى صدره ويقبلني بين عيني ويرطن

بكلام كثير. ففهمت منه إجمالاً أنه قائد كتيبة في جيش تيمور، وأنه طالما طمع في أن يكون عنده فقيه ليكون لكتيبته زينة إسلامية. فلما عرف أنني فقيه سره ذلك وعزم على أن يأخذني معه، ثم أمرني في رفق أن أسير وراءه. فقلت « سبحان الله ! أهذه محنة جديدة ؟ » ووقفت حائراً متردداً. فنظر إلى وصاح بي مكرراً أمره أن أسير وراءه. فلم أجد بداً من السير ومضيت في أثره مطرقةً أفكر في أمري. ثم قلت أعزى نفسي « إن السير وراء هذا الفارس لن يغير شيئاً من حالي، فقد خرجت من ماهوش لأسير في الأرض وسواء لدى شرق وغرب » وانطلقت أمشي قريباً من ذيل جواده وأنا أكاد أغمض عيني.

ومازلنا نسير حتى مالت الشمس عن كبد السماء وأخذ التعب يدب في أوصالي، فنظرت إلى الفارس لعلى أرى عليه علامة تبشر بأنه يريد أن يريح جواده فلم أجد على مظهره ما ينم عن شيء من ذلك، لأنه كان يهز رجليه ويعني مرحاً. ومضى زمن طويل بعد ذلك حتى بلغنا قرية فاجتزنا بها. وفيما نحن خارجان منها طلع علينا فارس آخر عند منعرج الطريق، فلما رأنا أقبل نحونا يسعى، وكان في زينته أشبه الناس بصاحب، حتى خيل إلى أنه

توأمه وقد ولدا معاً فوق جواديهما . فلما اقترب الفارس منا حياً صاحبه ، ووقف حياله يحدثه ، ثم التفت نحوي وجعل يفحصني ببصره حيناً ثم عاد إلى صاحبه يراطنه باهتمام . ولم أدر ما كان بينهما من الحديث إلا أنني سمعت الفارس يصيح وهو ينظر نحوي : « ققيه ؟ »

فخفق قلبي خفقة شديدة ، ونظرت إليه مندهشاً ، ثم أحسست أن الضحك يكاد يغلبني . فملكنت نفسي وقلت باسماً « نعم ققيه » . فنظر إلى صاحبه وجعل يحدثه ، ثم سمعت الحديث يحكى والألفاظ تسرع فيما بينهما ، ثم رأيت الرجلين يجردان سيفيهما ويقف أحدهما حياال الآخر وقفة الحزب والنزال . فذب الأمل إلى قلبي وقلت لعل هذا أول الفرج ، فليس للفريسة من أمل إلا إذا تطاخن عليها الوحوش . ووقفت أنظر إليهما متفرجاً ؛ وكانا مثل ديكين وقفنا ليتناقرا . ولكنني لم ألبث إلا قليلاً حتى رأيت المنظر يتحول فجأة تحولاً كريهاً ، فبدلاً من وقوف الفارسين وجهاً لوجه إلى نهاية المعركة المرة رأيت صاحبي الأول يتجه نحوي مجرداً سيفه ليقتلني . نعم ليقتلني أنا ! ونظر قبل أن يتم عمله إلى قرينه وقال له ما معناه « حتى لا يكون لي ولا لك » .

فهمت من هذا مجمل ما كان بينهما من الجدل وعلمت أن صاحبي أراد أن يحسم الخلاف الذي بينه وبين صاحبه بأن يبقر بطنى . وهذه بغير شك طريقة مختصرة لحسم الخصام وإن كانت كريهة لى . وكان لا بد لى من الدفاع عن نفسى بما استطعت ، فصحت قائلاً : « حاسب ! ماذا تريد ؟ » .

فتوقف الرجل وجعل يبين لى قصده فى لهجة الاعتذار .
 فقلت متكلفاً الهدوء : « هذا رأى غير صائب »

فرد على بكلام كثير يحاول به أن يفهمنى أنه لا يريد إلا العدالة ، فإنه لا يابق عدلاً أن أكون قفيه غريمه بغير حق لأنه قد سبقه إلى ووضع يده قبله على ، وجعل يطيل فى شرح معنى العدالة وأنها شىء غير القانون وأنها لا ينص عنها فى الكتب بل توكل إلى الذكاء وحده . فلم أرد أن أجادله فى ذلك ، والعدالة على أية حال أمر نسبي يختلف الناس فى فهم معناها ، ويراها القوى من زاوية والضعيف من زاوية أخرى ، ولا سبيل إلى تلاقى نظرتيهما . ولم أجد وسيلة تنجيني من هذه العدالة إلا أن أجرد لها لسانى وحيلتى فقلت وأنا أرتجف :

— هذا كلام حسن . ولكن ألا ترى أيها الشجاع أن

تحتفظ بي حيًّا؟ فإنني أقدر على أن أتفكك وتستطيع أن تجد فيَّ
خيرًا كثيرًا .

فنظر إليّ غير مصدق فقلت له مسرعًا :

— أنا رجل ساحر أقدر على أن أوّلف الشعر وأن أكتب
الرسائل ، وأقدر على أن أرفع من شأنك حتى يراك الناس سيد
الخلق ؛ أقدر على مدحك بما لا تتصور ، فيصدق الناس أنك
أفضلهم وأسمحهم وأعلمهم وأعقلهم وأحكمهم وأشجعهم .
ولست أدري أفهم قولي أم لم يفهمه ، ولكنني رأيتك قد لان
ورق لي فأتبعت قولي :

— إنك رجل باسل بغير شك وتستطيع أن تقاوم صاحبك
حتى تقتله أو تعجزه . فإذا تم لك ذلك سرت وراءك شرقًا أو
غربًا كما تشاء .

ولكن هذا الرأي لم يعجبه ، فأطرق مفكرًا وهو يتأفف ، ثم
رفع رأسه بعد حين وقد تهلل وجهه كأن فكرة موفقة سنحت
له ، وتقدم نحوى باسمها ووضع يده على كتفي قائلاً : « عفارم !
وجدتها ! »

ثم لوى عنان فرسه وأسرع إلى صاحبه ، وسرت وراءه في لهفة ،

فسمعتة يقول له : « أتذكر الكلب الأسود الذي أودعته عندي؟ » فقال له الفارس باهتمام « نعم بلا شك وأنا في حاجة إليه » فقال له صاحبي مبتسماً في خبث « إذا أردته فانزل لي عن هذا الفقيه » وأشار إلى . وصمت قليلاً ثم قال « وإلا فإني قاتل كلبك عند عودتي » وكانت هذه الكلمات كالصاعقة إذا انقضت على الرجل . فنزل عن جواده مترنحاً ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يتوسل إلى صاحبه بكل كلمة رقيقة أن يبقى على كلبه وأن يفعل بي ما شاء . ثم مسح دمعة ثارت في عينه وسلم لصاحبه بغير قيد ولا شرط . ولست أنكر أنني قد رقت للرجل في حزنه من أجل كلبه وشيعته بنظري وهو منصرف عنا وفي قلبي مودة له ورحمة .

ولم يطل بنا الوقوف بعد ذلك فسار صاحبي المنتصر في طريقه ، وأمرني أن أسير ورائه وجعل يهز رجله ويفنى . وسرت ورائه في شيء يشبه الدهول أتحرك بلا وعى كالآلة الصماء .

وكاد النهار ينصرم وأنا أجرر قدمي وراء الجواد ، وتمشيت التعب في مفاصلي وعروقي ، واستولى الضيق على نفسي ، ولاح لي الفضاء مثل لجة البحر الهاجج لا تقع العين فيه إلا على سر مجهول . ثم أقبل الليل بعد أن كادت نفسي تزهق ، فدعوت الله أن يبعث

الفرج . ونظرت إلى الفارس في حقد ، وأخذت أتلو بعض آى من القرآن . وما كان أشد فرحى عند ما رأيته يقف فجأة كأن شيئاً أمسكه . ونزل عن جواده وجعل يمشى وينظر حوله ليختار مكاناً للمبيت . وكنا قد بلغنا غابة عظيمة لا تبلغ العين آخرها ، قد اكتست أرضها بالعشب الأخضر وتشابكت فى أعلاها الغصون . فجلست لألقف أنفاسى وأريح أعضائى ، ولم يلبث الظلام أن أرخى سدوله ، ثم طلع القمر وكان شعاعه يفيض على الغابة - جمالاً باهراً . وهدأ حر النهار إلا ما بقى منه كامناً فى الهواء إذا هب رخاء من الشمال . وأخذ نور القمر يزداد حتى تخلل فرجات الأغصان وكسا البساط العشبى الذى تحتها ، وتراقصت الظلال وتلاعبت كلما هبت نسمة من النسمات . فاسترعى ذلك الجمال بصرى وجلست ساعة أتأمله ، وكانت المتعة التى أصبتها كافية لإزالة تعبى واضطرابى ، وشعرت بنشوة تملأ صدرى ، ورأيت صاحبى الفارس قد خلع قلنسوته ووضع جعبته وأداوته على الأرض ، وأطلق فرسه يرعى ، وجعل يسير فى أطراف الغابة يجمع الأحطاب . فاسترحت إلى منظره الإنسانى وأنس قلبى إليه وأخذت أنفاسى تعود إلى هدوئها ودب البشر إلى نفسى .

وما أعجب عين الإنسان ! فبينما هي تنظر إلى دنيا مظلمة لا يلوح فيها بصيص من الأمل إذا بها ترى عالماً زاخراً بالجمال والسلام .
أيها الأمل إنك من نور الله تمثل السعادة على هذه الأرض ،
وإنك وليد الإيمان الحق فاليأس لا يغلب إلا القلوب الخالية
من الإيمان .

ولما شعرت بما داخل نفسي من الخفة قمت متجهاً إلى الفارس
وقلت له مستعيراً لفظه : « عفارم أيها الشجاع ا »
ولم أقصد من قولي شيئاً سوى أن أحدثه . وما كدت أفاتحه
بهذه الكلمة حتى استجاب وأقبل على حديثي منطلقاً كأنني
فككت بالكلمة عقدة لسانه . وسأعيد ما قاله لي بلغتني ؛ فقد
كانت لغته رطانة لا تفهم إذا نقلتها عنه نصاً . قال باسمًا :

— ساهيئً لنفسي طعاماً وشراباً . نعم فإني أهيمُ طعامي بيدي
دائمًا إذا استطعت . ولا أحب أكلًا إلا إذا طبخته وسويته ،
وما زجت بين ما يقلى منه وما يسلق ، وقدرت ملحه وذررت عليه
الأفاويه بمقدار .

ثم استمر يضرب الأمثال مما صنع ويذكر الصنوف وتواريخ
صنعها وهو في أثناء ذلك يذهب ويجيء في ضوء القمر . فقلت له

باسمًا: « هذا بديع . ولا شك في أنك رجل ماهر » . فنظر إلى مسروراً وبدت نواجذه السوداء من فمه الأهم ، ثم مال على جعبته وأخذ ينكشها قائلاً: « ليس هنا إلا بقايا مجففة . ولو كان في الوقت فسحة لكان عشائي لحماً طرياً » . ثم أشار بيده إلى الغابة وقال : « سأريك في الغد إذا بقينا هنا كيف أسدد الرمية وكيف أثبت الطير في كبد السماء » .

فقلت له باسمًا : « إن من كان مثلك لم تعص له الوحوش أمراً » .

فقال مرتاحاً : « وإذا شئت فإني أريك كيف أظعن بالرمح وكيف أحطم بالدبوس فإني صاحب السبق في هذه الفنون جميعاً » . فضحكت ضحكة حاولت بها أن أخفي الرعدة التي سرت في جسمي وقلت مبادراً : لا لا ! ليس في هذه الحال التي نحن فيها ما يدعو إلى رمح أو سيف .

فمضى في حديثه وجعل يصف لي مغامراته ومنازلاته ، وكما بدا على وجهي أثر من قوله زاد خماسة ، حتى كان أحياناً يمسك عن العمل لكي يشير بيديه . وفطنت إلى أنني أضيع عليه بعض وقته فاتهزت فرصة سكوته لحظة وهو مشغول بقدح زنده ليورى

به ناراً ، فتسللت ذاهباً نحو الغابة ووقفت أتأمل أشجارها ،
ومالت نفسى إلى أن أجول فيها جولة ثم أعود بعد أن يكون
صاحبي قد هياً طعامه .

وسرت فى الغابة وكان للهواء فيها عطر خفيف من رائحة
الأوراق والأزهار ، وكانت ألوان الشجر مختلفة وأشكاله متباينة ،
فمنه ما كان غزير الورق ومنه ما كان عاريا ، ومنه ما كان ضخماً
الجدع وما كان دقيقاً يتسلق متوكئاً على غيره . وجعلت أنتقل
فى الغابة من بقعة ضاحية يغمرها نور القمر إلى أخرى ظلية
تراقص فوقها الظلال ، وكان الليل الساجى يفعل فى نفسى فعل
السحر ، فلم أشعر بمرور الزمن ولا بطول السير ، ولم أتلفت إلى
ورائى لأنظر أين صرت من صاحبي ، حتى رأيتنى بعد حين أمام
صخرة وعرة لم أنظرها إلا عندما صرت على خطوات قليلة منها ،
كأنها خرجت فجأة من جوف الأرض لتعترض سبيلى . فأتجهت
بحوها فوجدتها صخرة مهشمة مدببة الجوانب كأن سطحها كله
من أنياب وأظفار . وهى تنطوى على كهف مظلم يبعث الرهبة
فى النفس ، تخرج من ثناياه قناة فيها ماء صاف كأنه بلور مذاب ،
ينساب جارياً وهو يغنى بخرير يلاذ للاسماع ، خافت يشبه التهاتف

بالضحك في مزاح العذارى . وكان يهبط إلى حوض من الصخر
مهشم مصقول يلعب النور فوقه فإذا هو يبدو أخضر مثل قطعة
من الزبرجد من أثر ما عليه من الطحلب الدقيق . فوقفت
لحظات أتأمل المنظر البديع ، وكانت عيني لم تقع من قبل
على مثله ، فشملتني نشوة واهتزت نفسي طرباً ، ونسيت كل
ما كان من هجرتي ووحدتي ، حتى لقد نسيت جوعى ووجدتى
أدندن بالغناء . وتواردت على الألمان المشجية ، فجلست على
جانب الصخرة وغبت في غمرة أشجاني ، وجعلت أقلب عيني
وأتمتع بالمنظر ، وملأت صدرى من الهواء العطر ، ووجدت كل
حواسي نصيباً من اللذة من خري الماء مناسباً في جداوله ، إلى ريح
الزهر المشتعل في خمائله ، إلى لون الورد الناعس في غلائله .
جلست هناك وقتاً لا أدرى أقصيراً كان أم طويلاً ، ثم شعرت
بجأة بشيء من الرهبة يمسنى من السكون العميق الذى حولى ، فما
كدت أتنبه له حتى خيل إلى أننى فى عالم صاخب مضطرب .
سمعت خفق الأوراق على الأعواد ، ووسومة النسيم بين العنود ،
وخشخشة الحشر بين الحشائش ، فاضطرب خيالى وقف شعراً
رأسى ، ولم أطق البقاء فى مكاني . وهممت بالرجوع إلى موضع

صاحبي فنظرت نحو لي لأرى الطريق التي جئت منها فلم أجد أمامي إلا غابة شجراء ، وضوء القمر يسطع من فوقها ويتخللها .
نخيل إلى أن المكان قد امتلأ أرواحاً من الجان تتلاعب وتتواهب من حولي ، وأسرعت في سيرى وأنا أتلفت ورأى ولا أتبين لي طريقاً . وفيما أنا كذلك لاح لي عن بعد شيء يتحرك ، يشبه أن يكون قطعاً أو فهداً أو ظبياً أو أرنباً أو ذئباً أو غير ذلك مما يسير على أرض الغابات يلتمس قوتاً . فشعرت بوجهي يتقد ، ورفعت يدي لألمس جيني فوجدته بارداً تبلله قطرات من العرق . وحاولت أن أشجع نفسي بأن أسمع صوتي ، فحاولت أن أعني ، ولكن الألحان شردت عن ذهني ، وجعلت أوم نفسي على هذا الفرع الذي لا مبرر له وأجاهدها بكل ما استطعت أن أتذكره من الحكم . ولكن ذلك كله لم يُجِدني شيئاً . فعدلت عن الجهة التي رأيت فيها الشيء المتحرك وسرت في الناحية الأخرى . ولم يكن ذلك التحول بالأمر الخطير ، لأنني كنت أسير على غير هدى ، ولا فرق عند من يخبط في السير بين جهة وأخرى . ولكنني ما كدت أسير خطوات يسيرة حتى سمعت صوتاً لا شك في أنه كان صوت حيوان مسكين يعاني الآلام المبرحة بين أنياب عدو

مفترس أو مخالبه أو أظافره . فوقفت حيث كنت وجعلت أستمع ، وأمسكت أنفاسي فسمعت الصرخات تتوالى في فزع ثم سمعتها تضعف قليلا قليلا ثم انقطعت فجأة . لقد استسلم الحيوان المسكين بعد أن ضعف واسترخى وخضع لما لا حيلة له فيه ، وانتظر المصير المحتوم في جوف الوحش المفترس ، كما ذهب ألوف وألوف من أسلافه على مر الدهر الطويل .

ولم يكن من العجيب أن يسطو حيوان على آخر في الغابة ، فإن هذا هو قانونها الأزلي ، ولم يكن من العجيب أن أجد مثلا جديداً من احتيال الكائنات على اقتناص الرزق فإن قانون الغابة كان دائماً هكذا : من عز بز ، ومن غلب افترس ، ومن استطاع صيداً اصطاد ، ومن قدر على الروغان راغ . ولكنني مع هذا اهتزرت هزة عنيفة عند سماع ذلك الصوت . فلما عاد السكون العميق إلى الغابة خيل إلى أن ذلك الصمت أكثر ضجة من أعنف الهيبات في معامع الحرب ، وصرت كلما خطوت خطوة تمثلت حولي نضالا متصلا فيه فتك وفيه فناء وفيه مطاردة وهروب . وكلما مررت بكومة من الأوراق الجافة وسمعت بينها خشخشة تمثلت لي صورة معركة دامية بين قوى وضعيف أو

بين سريع و بطيء . ولج بي التصور حتى ضاقت نفسى بالسكون
 الشامل الذى لا ينطوى على سلام بل يستر تحته حرباً
 متصلة قاسية .

وتمنيت لو تمزق هذا الصمت عن زجرة الأسود وضحكات
 الضباع وفحيح الأفاعى ، فقد كان ذلك أرفق بنفسى لأنه لا يخذعها
 بمظهر كاذب من سلام مموه خداع . وبدت لى الحياة الإنسانية
 عند ذلك جنة نعم إذا قيست بالحياة فى هذه الغابة الساكنة ،
 لأن الإنسان قد أقام قوانين تحمى الضعفاء من الأقوياء وتبيح
 للبطى أن يسعى على بطئه ، وللصغير أن يبقى على هوان أمره .
 وأسرعت فى سيرى وأذهلنى الاضطراب عن التفكير فى مكانى
 أو فى المآل الذى ينتهى إليه سيرى ، وجعلت أخطب بين الشجر
 خبط عشواء لا أبالى أين تحملنى قدمائى . ولم أنتبه إلا فجأة وقد
 لاحت لى بين الأشجار عن بعد أنوار لهيب تسطع فوق الجذوع
 والأغصان ، فعادت إلى صورة صاحبى الفارس ، فأتجهت إليه وكان
 السير قد أجهدنى واضطراب الفكر قد نال منى ، فأحسست بتعب
 شديد يشيع فى أعضائى ، وتمنيت لو اتخذت من بعض أكوام
 الورق الجاف فراشاً ، ولكنى تحاملت على نفسى حتى بلغت مكان

الفرس فوقفت لحظة أنظر إليه وهو منصرف إلى إعداد طعامه
 ينحنى على النار ليضع فيها أعواداً تزيدها ضراماً ، ويميل عليها
 ينفخ فيها ورأسه الأصابع يلمع في ضوءها والشرر يتطاير من حوله .
 فلما أحس بمقدمي رفع رأسه وهو يبسم سروراً حتى بدت
 أسنانه السوداء من تحت شاربيه المتهلدين . فارتيمت إلى جانبه
 خائر القوى وخرجت مني آهة نفست بها عن صدرى . فقال لى
 بعد أن نفخ في النار نفخة : « لقد سرت طويلاً » . فقلت له
 في صوت ضعيف : « أما نضج طعامك ؟ »

فقال فى مرح : نعم كاد ينتهى . حساء وأرز بقطعة من زند البقر .
 فقلت له : هنيئاً مريئاً .

فقال وهو يبلع ريقه : وسنبوذج ولوز ينج .
 فقلت ضاحكاً : إنها وليمة .

فضحك وقال وهو يشير إلى زق من جلد المعز : وكأس من
 النبيذ المعتق .

فقلت مبادراً : أما هذا فلا شأن لى به .

وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى خجلت خجلاً شديداً
 لأن لفظى خائنى . كنت حقاً شديد الجوع ، ولكن ما كان ينبغى

لى أن أدعو نفسى إلى طعامه . وكأنه قد لحظ خجلى فقال لى
مترقفاً : متذوق طعامى وستحكم على مهارتى .

فسرّى عنى وقلت مبتسماً : أشكرك . إنك رجل كريم .
فنظر إلى مسروراً ، وهز رأسه مرتاحاً إلى مديحى ، وكشف
غطاء القدر وجعل يقلب ما فيها بخنجره وهو يمص شفثيه ،
ولاً أكرم أن رائحتها كانت تنفذ إلى أعماق صدرى طيبة شهية .
وأخرج قطعة لحم نجسها بظفره ثم أعادها إلى القدر ، وتحرك
فى مجلسه وفرك يديه مسروراً وقال : « سيكون عشاء عظيماً » .
ثم قام يهيماء السفره ، فقامت معه لأساعده وما هو إلا قليل حتى
كنا نتسابق فى التقام الطعام .

ولم يقم الفارس عن طعامه حتى شرب أكثر زقه وتركه على
الأرض مفشوشاً ، وكنت قد أمتعت نفسى بالطيبات وأثنت
على طعمها ورائحتها ، وكان القمر لا يزال فى كبد السماء ، فقامت
لأصلى ما فاتنى من الأوقات . وجلسنا بعد ذلك نتسامر ، حتى
طالت ظلال الأشجار واشتد برد الليل فتلففت فى ثيابى
واضطجعت فوق كومة من الحشيش الجاف وتغطيت بشيء
منه ، وعمد صاحبى إلى كومة أخرى ففعل كما فعلت .

٢

قمت في الصباح فتوضأت واصلت . وكانت الصلاة إلى جانب الغابة قرّة عين . فهناك كنت أتمثل قدرة الله في خلق هذا الكون البديع ، وكنت أصلي بقلبي وعقلي ولساني . ثم أخذ الفارس يستعد للسير بعد أن أصاب شيئاً من الزاد وأشركني فيه ونحن على عجل ، وأقبل على فرسه يمسه ويخدمه وأنا أنظر إليه متعجباً وأسائل نفسي عما جمعي به . فسرحت أفكارى فيما رأيت الليلة السابقة من نضال بين الأحياء ، حتى كدت أعتقد أن الحياة الإنسانية ليست إلا جزءاً من حياة الغابة . وكدت أنكر ما توهمته من فضل امتاز به الإنسان على سائر الحيوان إذ أقام لنفسه نظاماً وسن من القوانين ما يحمي الضعيف من القوى ويكفل الحياة للصغير والبطيء . كدت أنكر كل هذا ، بل لقد خطر لي أن الحيوان في الغابة أسلم وآمن فيما بينه وبين نفسه ، لأن النضال إنما يكون بين صنوف مختلفة منه ، فالأسود لا يفترس بعضها بعضاً ولا يتخذ بعضها البعض خدماً ولا تفرق بين أنفسها بحدود ، ولا تجعل في جنسها أمماً يحتقر

بعضها بعضاً أو تتقاتل وتتفانى فيما بينها . وهي لا تتناكر ولا تتشاحن لأن الله لم يصبها بذلك المصاب الويليل : تحريك اللسان بنطق اللغات . وليس فيها من يميز نفسه على سواه بعلامة مصطلح عليها ، فلونها واحد وأنيابها متشابهة وذيوها سواء في طولها ، ولم يمتحنها الله بمحنة الملابس التي يتخذها الإنسان وسيلة للتفريق والتمييز بين بعض وبعض ؛ فكل فرد في الغاية مساو لكل فرد آخر من جنسه . جعلت أفكر في هذا حتى بلغ بي الأمر أن تمردت على الإنسانية ، وجعلت أشد في تعنيفها وأتهمتها بأنها تدارى سيئاتها تحت ستار خداع من الألفاظ التي طالما استعانت بها في إخفاء الحقائق عن نفسها .

لقد بدا لي عند ذلك أنني أسير وراء الفارس كما يسير فرسه من تحته ، لا أملك أن أتحول عنه كما لا يملك الفرس أن يتحول عنه ، وأنه إنما يخذعني إذ يترفق بي أو يبسم في وجهي ؛ فان جوهر الأمر كله أنه أخضع إرادتي لإرادته وليس بعد هذا مرتبة أبلغ في القسر والعدوان .

وساقتني هذه الأفكار بدفعها حتى تصورت الإنسان أحمق الكائنات وأبشعها وأقساها . تمثلته عند ذلك عبداً للألفاظ

التي كان يحاوله منذ الأبد أن يخدم نفسه بها . كان في العصور
السالفة ينحت قطعة من الحجر ويسميا بلفظ جميل فإذا هي
عنده إله مقدس يعبده ويتقرب إليه ، ويقوم عليه السدنة
والكهنة يتجرون باسمه الجميل . ثم ها هو ذا اليوم يجعل من
الجرائم فضائل ويسميا أسماء جميلة — يسميا « الحرب »
و « المجد » و « العظمة » وما هي إلا جرائم قتل ونهب وتدمير .
هذا « تيمور » وما أحراه أن يكون في أعين الناس أشد المجرمين
خطراً ، وما أجدر الناس بأن يقيده في السلاسل ويجعلوه في
مأمن لا يستطيع الهروب منه . ولكنه أفلح في أن يسمي جرائمه
أسماء جميلة فاستطاع أن يفوز بالسلطان الأعظم في الأرض .

ومر الوقت سريعاً وأنا أنظر إلى صاحبي وأناجي هذه الخواطر
المضطربة ، ثم رأيتته قام وركب وأشار إليّ أن أسير وراءه فقممت
خاشعاً ومضى في سبيله يهز رجلية ويغني على عادته . ولو واتتني
خفة النفس لغنيت مثله ، ولكن أفكارى أبعدت عني الألحان
جميعاً . فسرت مطرقاً حتى سمعته بعد حين يناديني . فرفعت رأسي
فرأيتته يوميء إليّ أن أقرب منه . ثم سألتني هل أحب الركوب
وراءه ؟ فدار رأسي ولم أدر بم أجيب ، لأن الأفكار اختلطت عليّ ،

فصرت لا أدري أيها الصحيح . فهل الإنسانية رابطة أقوى بين الناس أم القانون الطليق الذي شهدته في الغابة ؟ ومهما يكن من أمرى فأننى ترددت وارتبكت ولم أجب . فظن الرجل أننى أتردد لأنى لا أعرف الركوب ، فتحرك وجعل يبين لى الطريقة المثلى لمن أراد أن يعاوظهر الخيل ، وعلمنى كيف أضع رجلى اليسرى فى الركاب وكيف أتحمّل عليه وأثب على ظهر الفرس ، ثم مد يده لىكى يساعدنى حتى علوته من ورائه . وخشيت أن يرانا أحد على هذه الحال فيسخر منا فتلفت حولى فلم أجد أحداً . فسكنت وراءه وأمسكت بردائه ، ووجدت بعد قليل راحة فى الركوب بعد السير الذى هدّ قواى فى اليوم السابق .

واتصل الحديث بيننا ، وكنت أجد بعض المشقة فى فهم أقواله ، فقد كانت لكنته الأعجمية تخفى معنى ألفاظه ، ويزيدها فساداً أنه كان أهتم لا يحسن النطق بالحروف ، ولكنى مع هذا كنت أفهم مجمل قوله تخميناً . ولم تكن الحاجة تدعو إلى فهم كل كلامه إذ كان معناه لا ينحسر كثيراً بما يضع من لفظه . وكان إذا أراد مخاطبى لفت رأسه نحوى فأرى صفحة وجهه كأنها صورة رسمها طفل فى ورقة يعبث فيها ، وإذا أردت

أنا مخاطبته أخرجت رأسي من ورائه حتى يراني . ولست أدري كيف كان يرى صفحة وجهي ، ولكنه كان بين حين وآخر يضحك إذا وقعت عينه على عيني حتى يبدى أسنانه السوداء المنشورة في فمه . فكنت أرد عليه بضحكة مثلها تخرج من ثنايا قلبي . وكان أكثر ما قاله لي لا يزيد على وصف مغامراته في الحروب مع تيمور . ويمكن الإنسان في سهولة أن يلخص ذلك كله في بضع كلمات : أنه شارك في سفك دماء الكثيرين من بني آدم .

وكنت أحياناً أضيق بحديثه ، وأهم بأن أقذف نفسي من ورائه لولا أن الجواد كان يسير . فكنت أحاول أن أصرف حديثه إلى معنى لا يثير في خيالي مناظر الدماء ، واستظعت بعد لأي أن أستدرجه إلى التحدث عن نفسه ، وعن أولاده فوجدت ذلك الحديث أكثر إيناساً لأنه دلني على أن الرجل كان آخر الأمر إنساناً يعرف معنى المحبة .

وأخيراً دخلنا ريف جانبولاد ، وكان منظره بهيجاً . كان الهواء يهب على البساط الأخضر فيتموج سطحه كما يتموج البحر أمام هبات التسيم . وكان الزهر يتخلل الحضرة بين أحمر

وأبيض وأصفر، ومن فوقه ترفرف الفراشات متنقلة متقلبة تتوالت كأنها تلاعب الزهرات فوق أعوادها وتضحك منها إذ هي لا تستطيع أن تثب وراءها . فلأني المنظر مرحاً واهتزت نفسي بمواطف نقلتني إلى عالم من الأحلام ، فنسيت الفارس وحديثه وانطويت على نفسي أتأمل ما طبع فيها من الصور البديعة ، فما صحت من تأمل إلا على وكزة في صدري ، فاذا بصاحبي يدفني بمفصل مرفقه دفعا مؤلما . فقلت له وأنا أ كظم غيظي :
« ماذا تريد مني ؟ » .

فقال لي في حنق : « ألا تسمع ؟ أقول لك انزل . انزل وأحضر اثنتين من هذه »

فلم أفهم وقلت له مستفهما : اثنتين من أي شيء ؟
فأدار وجهه نحوي وقال وقد احمرت عيناه : نعم . اثنتين من هذه .. وأشار برأسه إلى حقل مزروع بالكرنب . ما كان أعجب صاحبي هذا في تقلب نزواته !

وكان الحقل يانع الخضرة يغطيه كرنب كبير تفتحت أوراقه الخضراء عن قلب أبيض صاف . فقلت متردداً : « بكم ؟ »
فوكزني مرة أخرى . وقال : انزل . هات اثنتين . ألا تفهم ؟

فلم أجد مهرباً من وكزه إلا بأن أتحرك وأهم بالنزول وكان لا يزال واضعاً قدميه في الركاب يهزها والجواد سائر به قدماً .
فصحت به : « قف الفرس . »

فشد اللجام ورفع قدمه اليسرى من الركاب قائلاً « هلم » ثم ساعدني على النزول . ولست أدري ماذا فعلت ، فقد وقعت عن ظهر الجواد وتشبثت بالفارس حتى كدت أوقعه معي ، لولا أنه دفعني فوقعت على الأرض وحدي ، وقت أنفض التراب عن ثيابي . ثم اعتدلت وفي وجهي شيء من التحدي ، فقد كنت لا أحب أن آخذ كرنب الناس بغير ثمن . فصاح بي غاضباً « أسرع ثم الحق بي » وهمز الجواد وسار في طريقه . فلم أجد بداً من الطاعة ، وتلفت حولي فلم أجد أحداً ، فملت إلى طرف الحقل ونزعت منه كرنبة قريبة ، وما كدت أفعل حتى سمعت صوتاً يصيح بي :
« ماذا تأخذ ؟ »

ثم خرج رجل من عريش في أقصى الحقل وجاء يجرى نحوي . فنظرت نحو الفارس فوجدته لا يزال يهز رجله فوق الفرس ، فوضعت الكرنبة على الأرض وأسرعت لألحق به . ولكن صاحب الحقل لم يدعني ، وجرى ورأني وهو يصيح ويهدد ويشتم ،

حتى أدركنى وأخذ بتلابيبي . وسمع الفارس الصوت فالتفت ووقف الفرس ، ثم لوى عنانه وأقبل نحونا مسرعاً . وكان الرجل يدفعنى فى صدرى ويكيل لى السباب كيلاً ، ثم رفع هراوة فى يده وكاد يهوى بها على رأسى ، لولا أن الفارس همز جواده وأدركنى . فلما رآه الرجل أرخى يده وأنزل هراوته وأطلقنى من قبضته ، وقال فى خوف وهو ينظر نحوه : « هل هذا معك ؟ » . ثم قال للفارس فى خشوع : « هل هو معك يا جندى ؟ » فأقبل عليه صاحبي وأخذ يقتص منه بما شتمنى به ، ورفع يده بالسوط . فصاح الرجل : « لم أعرف أنه معك » . ثم جرى نحو الحقل ورفع الكرنبة التى قطعها وقلع معها ثلاثاً أخرى وجاء يحمل كل اثنتين فى يد من يديه الغليظتين ، حتى قدمها إلىّ — أربع كرنبات عظيمة منفوشة .

فقلت له حانقاً : « ومن سألك أيها الأحق أن تأتى بكل هذه ؟ » فانفجر الرجل كأنه أراد أن يفرغ فى غيظه كله وقال صائحاً : « خذ فاحمل . خذ أيها الكسول » ثم جعل يدفع إلىّ واحدة بعد أخرى وهو كلما أعطانى إحداها شتم شتمة جديدة ودفعنى فى يدي إذ يناولنى . فلما فرغ منها انصرف عنا وهو ينغم . وجعلت أحتال

على طريقة أستطيع بها أن أحمل حملي ، وقضيت في ذلك حيناً
أضعه في أشكال وأوضاع وهو ينفطر ويتساقط ، حتى استطعت
أخيراً أن أجمع كل كرتين على كتف وأمسك رأسيهما بيدي
من أمام ، ونظرت إلى الفارس منتصراً . فارتاح لما رأى وقال لي
« عفارم ! » ثم ابتسم وهمز جواده وسار وسرت خلفه ولم يكن
ثمة أمل في ركوبي من بعد .

لم نلبث أن أوغلنا في ريف جانبولاد ، وكثر الناس على
الطريق وفي الحقول ، وكانوا كلما مر بي أحدهم نظر إلى نظرة
طويلة يتأملني وأنا سائر وحلي يهتز فوق كتفي مع حركة جسمي ،
ثم يرفع كم ثوبه إلى وجهه ليخفي تحته ضحكته . فكنت كلما مررت
بواحد منهم نظرت إليه ، حتى إذا رأيت يرفعه كما بادت كذلك
برفع كمي إلى فمي ، فترتفع على أثر ذلك قهقهة صريحة مرحة
كانت ترن في أذني أحلى رنين . أيها الأشقياء من بني الإنسان !
التمسوا الضحك كلما أحسستم بالرغبة في البكاء . التمسوا الضحك
كلما شعرتم بدبيب اليأس بين ضلوعكم ، فان اليأس لا يلبث
أن يذوب تحت نوره الساطع .

هذا أمر مجرب عرفته من طول ما قاسيت في الحياة .

واقتربنا بعد حين من قرية وكانت الشمس قد علت في كبد السماء واشتد الحر فتحرك الفارس في سرجه ونزل إلى ظل شجرة في جانب ساقية علي مقربة من أكناف القرية واخترت لنفسى مكاناً معتزلاً وجلست أنظر إلى الحقول وإلى الناس ممن يذهبون إلى القرية أو يخرجون منها .

ثم تنبته على صوت صاحبي يناديني : « هو . ألا تسمع ؟ . » وكان إلى ذلك الوقت لم يسألني عن اسمي ، فعذرته في جفاء ندائه لي ، ونظرت إليه مستفهما . فأشار إلى يده أن أذهب إليه . ثم قال : « ألم تجع بعد ؟ » وكنت بغير شك جائعاً . فهزرت رأسي أن نعم ، وحسبت أنه كان يخفي طعاماً في موضع لم أراه فقال لي : إذاً ماذا تفعل ؟ . فجاجأني سؤاله ولم أحر جواباً . أيسألني أنا عما تفعل ؟ وهل سرت وراءه من ماهوش لأدبر له طعامه ؟ ونظرت إليه والعجب مرتسم على وجهي . فأعاد قوله : « ألا تسمع ؟ ماذا تفعل ؟ .. » فقلت له : « إذا لم نجد أكلًا فلا يمكن الأكل » . فلم يعجبه ردى وقبض وجهه وأطرق قليلاً ثم رفع رأسه باسمًا وغمز بعينه مشيراً نحو القرية . فثارت في نفسي شكوك كثيرة ، وهزرت رأسي مستفهماً . فضحك وقال : « اذهب

إلى هناك . فالتمس لنا طعاما » . وكأن حجراً قد أصاب رأسي
عند ذلك فتراجعت أترنح وصحت « ماذا؟ » فأعاد عليّ قوله
وإيماءته وبسمته فزادت حيرتي . إن أهل القرية كثيرون
يبلغون المئات أو الألوف ، وقد عجزت عن صاحب حقل الكرنب
وحده فما بالي بهؤلاء جميعاً ؟ واستقر رأبي على الإباء . ولم يكن
الجوع شاقاً عليّ فقد تعودت صوم رمضان فلن أعجز عن صيام يوم
واحد . ولكن الفارس صاح بي : « ماذا يؤخرك عن السير ؟ »
فتجرات وقلت : « إنني لا أملك نقوداً » . فنظر إلى نظرة فيها
ازدراء ، ولكنه سكن لحظة يفكر ، ثم لمعت عيناه وقال متحمساً :
« عفارم ! خذ هذه فبعها واشتر بئمنها » ، وأشار إلى الكرنب .
فسمرت في موضعي ولم أنتحرك ، إذ كانت هذه أخت الأخرى ،
ولا خيار بين البيض الفاسد . فلما رأى الرجل أنني لا أنتحرك قام
وهزني من كتفي هزة عنيفة وصاح بي : « هو . لا تضع الوقت » .
فلم أجد بداً من الطاعة ، وحملت الكرنب وسرت به نحو القرية .
فلما دخلتها وجدت جدراناً من الطين قد رصت رصّاً ليس فيها
سوى فتحات صغيرة أذكرتني بيوت الدجاج . ورأيت الدواب
تخرج منها فحسبتها حظائر الماشية ، جعلت في طرف من القرية ،

ولكنى كلما سرت لم أر إلا جدراناً متشابهة ورأيت الناس يدخلون
ويخرجون منها بثيابهم المتربة وعيونهم الرمضاء . مساكين هؤلاء!
هل يكون بينهم من يشتري الكرنب ؟ وسرت حتى بلغت آخر
القرية فوجدت براحا من الأرض فيه أطفال يلعبون بكرة يتقاذفون
بها ، وكنت أحب الأطفال منذ خلقني الله ، ولا أرى منهم أحداً
حتى أذكر ولدي عجبياً جميلة . ما كان أشوقني إليهما وما كان
أشد حنيني إلى رؤيتهما ! لقد تركتهما منذ يومين طويلين كأنهما
دهر من الدهر . وكنت لا أدري كيف أمسيا ولا كيف أصبحا
ولا أعلم هل أصابا عشاء أم فاتهما العشاء والإفطار . الله لهما من
حبيبين فهو أشفق عليهما مني وأبر بهما . وتقدمت نحو الأطفال وأنا
أمسح دمعتي ووقفت أنظر إليهم وشفطاي تختلجان وقلبي يخفق .
كم كان في هؤلاء من أمثال ولدي ؟ وهل كان فيهم من تركه
أبوه وهاجر من القرية كما هاجرت ؟ مساكين هؤلاء الأبرياء
كانوا يلعبون في أسماهم البالية ويفركون أعينهم الرمضاء
بأيديهم الملوثة . وتأملت وجوههم الشاحبة . لقد كانت جميلة
لو امتلأت لحماً ودماً . ونظرت إلى أقدامهم السوداء . لم تكن سوداء
وإنما هو الطين الكثيف الذي كان يغطيها بلونه الكالح القاتم .

مساكين هم ما كان أنظرهم في توابهم وتضاحكهم وتعابهم .
وتحركت نفسى إليهم فلم أملك أن اندفعت نحوهم لكي أشاطرهم
ما هم فيه ، وأعلمهم كيف يسددون الرمية ، فقد كنت فى صباى
عميداً للصبيان فى لعبهم . وما كدت أقرب منهم حتى سددت
إلى الكرة من يد أحدهم ، ف وقعت فى صدرى وصدمتنى صدمة
كادت أصرخ من ألمها . لم تكن كرة علم الله بل قطعة من الطين
اليابس القاسى . فوقفتم ووضعتم الكرنب على الأرض لأمسح
ما علق بثيابى من الوسخ ، وما كاد الشياطين يبصروننى أفعل
هذا حتى علا ضحكهم وأقبلوا على يصفقون ويستعدون لى
يتخذونى هدفاً لقتلهم . فحشيت على نفسى وحملت الكرنب
مسرعاً وسرت من حيث جئت وأنا أسمع تناديهم وتضاحكهم
وتحريض بعضهم بعضاً على أن يسرعوا لتسديد قذيفة جديدة
ليدركوا منى متعة أخيرة قبل منصرفى . وكان قلبى مع ذلك
لا يزال يخفق حينئذ إليهم عندما بلغت أقصى الميدان وبعدت عن
مدى رمايتهم .

عدت بعد ذلك إلى نفسى وذكرت الكرنب والفارس ،
وجعلت أفكر فى طريقة أحمل بها من يستطيع الشراء من أهل

القرية على شراء سلعتي ، فتذكرت الباعة في وطني ماهوش وهم ينادون على سلمهم بالأسجاع والنغفات المطربة ، ويصفونها وصفاً شعرياً يحبها إلى الشارين ، فجعلت أنادي على الكرنب وأتغنى به وأستعير له كثيراً من صفات الزهر والطور والحريز . ولست أدري ما الذي حمل أهل القرية على أن يجتمعوا حولي ويضحكوا كلما سمعوا ندائي ، كأنني كنت أناديهم لأضحكهم . ومضى وقت طويل وأنا أسير والناس يسرون من ورأى نساء وصبية وشباناً ولم يتقدم أحدهم للشراء ، حتى يئست وعزمت على الرجوع خائباً . ولكنني فكرت في ثورة صاحبي إذا عدت إليه بنيز طعام ، فنظرت إلى الجمع الذي كان حولي وسكت عن الغناء ، وقلت لهم بكلام ساذج : « ألا يريد أحد في هذه القرية أن يشتري كرنبة مني ؟ » فضحكوا جميعاً واقتربت مني عجوز فقالت ضاحكة : « فعل الله لك . هل تريد بيعاً ؟ لقد كنا نحسب أنك تغني إعجاباً بمحضرك » فأجبتها منكسراً : « أسأل الله لك الستر يا أماء ! لم يكن بي إعجاب بها بل لقد ضقت بها وثقلت على كاهلي . وإنما غنيت ليشتري الناس مني على عادة قومي في ماهوش » . فضحكت وضحك سائر من حولي وتصايحوا فيما

بينهم : « غريب غريب ! » وتواثبوا إلى من كل ناحية يقبلون ملابسى ويجسونها ويمسحون أيديهم عليها ، وجعلوا يمحروننى بالأسئلة عن وطنى ومتى جئت وإلى أين أذهب . ولم أستطع أن أجيب على شىء من ذلك كله بل شعرت بضيق شديد وصحت بهم فى شىء من الضجر : « هذه كرنبات فاشتروها منى بدرهيمات اشترى بها طعاماً » . وكانهم سمعوا منى مزاحاً فصاحوا ضاحكين وقالت إحدى البنات : « غن لنا مرة أخرى يا عم ! » فغضبت ونظرت إليها فى ألم وكدت أصبح صبيحة أخرى مؤنباً ، ولكنى سمعت من ورائى صوتاً ينادى : « عفارم ! » فعرفت الصوت ونظرت إلى ورائى فى فزع وأردت أن أشكو إلى الفارس ما لقيت ، ولكنى رأيت وجهه يتحرك بالغضب ، ورأيت شاربه يهتز كشارب القط إذا كشر ، ولم أدر إلا وقد اقترب منى وأخذ الكرنب فألقاه على الأرض فى عنف ، فتحطم وتطايرت أجزاءه وتناثرت أوراقه الرطبة البيضاء ، ثم صاح فى وحشية : « ما هذا ؟ »

وما كاد الجمع يراه حتى انفض من حولى فجرى النساء والصبية وهم يصرخون ، وانصرف الرجال والشبان يتلفتون إلى

وراء . فقلت له وقد غضبت : « ماذا ؟ » فصاح بي صيحة لم أفهم معناها ثم مضى إلى أقرب منزل فطرقه وخرجت إليه امرأة فأمرها أن تحضر له طعاماً ، فأسرعت داخلة إلى الدار ولم تبطئ حتى جاءت إليه بما عندها من خبز وجبن وبيض . وما كان أشد عجبى عند ما رأيت المنازل المجاورة كلها قد فتحت ، وأقبل الناس منها يسعون زرافات ووحداً ، وكل منهم يحمل شيئاً في يديه أو في صفحة أو قرطاس ، وأخذت أجمع ما يأتون به حتى لم أدركيف أحمله ، وسار الفارس في كبرياء إلى خارج القرية عائداً إلى ظل الشجرة وسرت وراءه أحمل ما استطعت حمله في يدي ، وسار الناس من ورائنا في موكب يحملون ما جاءوا به حتى بلغنا مجلسنا ، فألقوا ما معهم وهم يتأدبون ويظهرون المودة ، ثم ساروا سراعاً كأنهم يلتمسون النجاة . ووالله لو كنت وحدي لقضيت النهار كله في سير ولعدت آخر النهار بمعدة خاوية .

أكلنا هنيئاً ثم جلسنا نتسامر وقد عادت أخلاق صاحبي إلى الموادعة ولم أتمالك أن سألته : « أيعرفك أهل هذه القرية ؟ إنهم قد أكرموك حقاً . » فقال وهو يضحك : « إنهم لا يعرفون إلا هذه الريشة » . ثم طأطأ رأسه وهز ريشته الزرقاء . وقال وهو

يبتسم ابتسامة هادئة : « إذا أردت أن تعيش فاعرف كيف تعيش . خذ ما تستطيع قسراً . إعرف كيف تأمر ثم تملأ جيبك . املأ جيبك ما استطعت ثم سر رافعاً رأسك . خذ ضريبتك أنى وجدت إليها سبيلاً »

نعم هكذا الدنيا ، وقد كانت هدايا المساكين منذ القدم ضريبة .

وبعد أن قضينا في الراحة ساعة قمنا إلى السير ، وأبيت أن أركب عندما سألتني الفارس أن أفعل ، بل شكرته وسرت على قدمي أتأمل ما قاله لي ، وقلبت نظري في الريف وما فيه من جمال الطبيعة ، وتمنيت لو كان أهل القرية بعض حيوان الحقل . فقد كانت قطعان الماشية ترعى في المرح الأخضر ممينة بيضاء ناصعة أو صفراء فاقعة ، تسر النظر بما عليها من كسوة نظيفة حباها بها الله جل وعلا . إذاً لكان الناس أسعد حالا وأجمل منظراً .

ومر وقت طويل وأنا سائر أفكر فيما يقع عليه بصرى ، حتى سمعت صوت صاحبي يناديني ، فنظرت إليه قرأيته يشير بأصبعه إلى الأفق . وكان النهار قد انقضى إلا أقله وأقبل الليل وأخذ النور يتضاءل ولاحت على الأفق مدينة كأنها صورة رسمها

صانع ماهر فوق طومار كاغد . و بعد قليل لمعت الأنوار تبص
خافتة من بعيد مشورة على الأفق في غير نظام . وخفق قلبي
عند ما سمعت الفارس يصيح وهو يشير إلى المدينة « جانبولاد » .

٣

لم تدع لى الأيام الأولى من مقامى فى جانبولاد فراغاً للتفكير
ولا للترفيه عن نفسى ، فقد كنت فى شغل شاغل من أمر حياتى
الجديدة وما ينبغى لى فيها من وسائل العيش . فالتخذت لى مسكناً
فى جوار صاحبى الفارس — غرفة وفناء واسعاً تسطع فيه الشمس
من شروقها إلى غروبها . وأعددت فيه القليل من الأثاث ، ولم
أنس أن أبعث مع بعض التجار خيراً يطمئن أهلى فى ماهوش
وأرسلت إليهم شيئاً من الرزق الذى أصبته .

ولما استشعرت الاطمئنان إلى حياتى الجديدة ، أخذت أدير
عينى فيما حولى وأتحسس أحوال البلد الذى حلت فيه .

وجانبولاد مدينة عظيمة تجتمع فيها خيرات ريف خصب .
وكانت من قبل ترأثا لعلاء الدين سلطان ماهوش ، ثم نزعها منه
تيمور فيما نزعها من أرض السلاطين .

مسكين علاء الدين ! إننى لا أذكره إلا ذكرت الدين
 والمكرمات جميعاً . ولكن أبر السلاطين ليس فى هذه العصور
 أقوام وأعظمتهم ، لأن تيمور لم يدع عظمة لغير سفاح الدماء .
 وعلية ابنة علاء الدين ! إن قلبى لم يخل يوماً من صورتها ،
 وما زالت تؤنس أحلامى فى حلى وترحالى . نظرتها فى ماهوش
 نظرة عابرة فامتلاً بها قلبى وجعلتها فى الحياة رمزاً لآمالى . وما يشق
 على فراق ماهوش لشيء بعد ولدى إلا من أجلها .

أيها القلب اتند فما من حيلة لك إلا أن تقنع بأطياف الأحلام ،
 فما عليه لك ؟ ما هى إلا صورة ، فلتقنع بها ولتجعلها نجمة
 وحى الملا .

قضيت الأيام فى هذه المدينة أعلم كل يوم معنى جديداً . ومن
 غريب أمر الإنسان أنه يرى فى البلد الأجنبي ما لا يراه فى البلد
 الذى ولد وعاش فيه . فكل ما يحيط بالإنسان فى بلده مألوف
 معروف ، مع أنه قد يكون للأجنبي عجباً من العجب .

ولست أقصد هنا أن أصف أهل جانبولاد لأبدى فيهم رأياً ،
 فمن ذا الذى نصب بعض الناس ليحكموا على البعض ؟ لا بل إنى
 أحس فى نفسى أشد الحاجة إلى عطف الآخرين على وتغاضيتهم

عن عيوبي ، فلست بمن يتلمس العيوب أو يعد السقطات . علمتني الحياة أن آخذ الناس كما أراهم ، فهكذا خلقهم الله وهكذا أراد لهم أن يعيشوا . إنهم من طين الأرض لا يستطيعون أن يكونوا من ملائكة السماء ، وما أحرانا إذا رأينا العيوب أن يزيد عطفنا على أصحابها وراثونا لهم ، لأننا من البشر نحس ثقل الطين في طبعنا ، وأكرم ما يستطيعه إنسان أن يملأ قلبه بالعطف على المخطيء والآثم ، لأن هؤلاء أحوج إخوانه في البشرية إلى عطفه .

ومع هذا كله فالحسن والقبح أمران يتوقفان على تقدير كل فرد ، وقد يكون الشيء حسناً في عين إنسان فإذا به نهاية القبح في عين إنسان آخر .

ولقد كدت أعدل عن أنى أقص حرفاً واحداً في وصف جانبولاد ، لولا أنني أردت أن أتحدث ببعض ذكريات حياتي فيها وأتأمل مناظر الماضي ، كما يتأمل مناظر السهل من صعد في الجبل إلى قمته . فإذا لم يجد في تأمله درساً يستفيده لم ينخل من متعة الذكرى .

كان صاحبى الفارس أول من عاشرت من أهل المدينة ، وقد وجدت على طول الزمن أنه في دخيلة نفسه إنسان . عرفت فيه

أموراً كثيرة دلتني على أنه من أرق الناس نفساً ومن أليّنهم
شكيمة . واسمه (طوطاط) ويعرف بين العامة باسم (وطواط)
فإن لأهل (جانبولاد) عادة في تسمية حكامهم أسماءً يخترعونها ، أو
يجرفونها عن أسمائهم أو يفيضون عليها بعض أفلاويه من فكاهتهم .
وأهل جانبولاد من أحلى الناس فكاهة ، وهذا مما حببهم إليّ ،
فالفكاهة أولى علامات الإنسانية . وهم يجدون في فكاهتهم
ترفيها كثيراً مما يعانون من مشقات الحياة . وعِلِيَّةُ جانبولاد
لا تخشى من عامتها شيئاً هو أشد عليهم من هذه الفكاهة
الحلوة اللاذعة .

كان صاحبي الفارس لا يملك في بيته أمراً ولا نهيّاً ، لأن له
في بيته امرأة تسيّره وهو بذلك سعيد ، لا يرد لها أمراً ، ولا يفكر
معه في شيء ، بل يترك لها قياده حتى يفرغ لما هو أجدر بعنايته
شأناً . فهو إن كان في طرق جانبولاد أسداً لم يزد في داره على
أن يكون حملاً وديعاً .

وكان في (طوطاط) إخلاص ومودة ، حتى كدت أعده
صديقاً . بل لقد كان له على فضل فيما بعد لن أنساه له أبد الدهر .
ولكنه رجل صاحب نزوات تشور به بين حين وحين ، فإذا ثارت

فلا يدري المرء إلام تنتهي به . وقد اعترته نزوة من هذه مرة ونحن معاً في داره وكان قد شرب بعض النبيذ وطرب ثم عربد ، فعزم عليّ أن أشرب معه . وشكرته معتذراً فألح عليّ ، ثم بالغ حتى حلف بالطلاق لأشربن معه ، وكان ذلك عليّ مسمع من زوجه . فوقعت في حيرة لم أدر معها ما يجب عليّ أن أفعل . فهل أعصى الله وأقارف إثم الحمر ، أم أطيع الله وأفرق بينه وبين امرأته ؟

ولم يكن التفريق بينهما هو الذي يزعجني ، لأن أكبر ظني أنه كان خيراً له لو تزوج أخرى تكون ألين منها جانباً وأرفق به في التمتع . فان الذي حرت فيه هو التماس طريق الخلاص من بيته إذا أنا لم أنزل عليّ حكمه وأبر له يمينه ، فإن الزوجة ما كانت تتركني أخرج من دارها سليماً . فاضطرت بعد التأمل إلى أن آخذ الكأس من يده ، وحسبت أن هذا يخرجني من الحرج . ولكنه أبي وأصر عليّ أن أنادمه سائر الليلة ، ولم يُجِدني معه اعتذاراً بأمر من أمور الدين أو الصحة ، فكنت كلما أبيت له عذراً قطع عليّ السبيل يمين جديدة . وجعل يعجب مني إذ أريد أن أعيش في جانبولاد بغير أن أتمتع بمباهج الحياة ، وحلف لي أعاظ

الأيام أنني أكون ضحكة بين الناس إذا أنا لم أسايرهم في حياتهم . فأخذت الكأس ورفعتها إلى فمي ومصصت منها مصة أظن الله يغفرها لي ، فقد قصدت بها أن أبر له يمينه . ثم قمت مسرعا فذهبت إلى الخلاء وادعيت أن برداً أصابني ، حتى إذا ما صرت خارج القاعة قذفت بنصف ما في الكأس ثم عدت لأنادمه . وكما رأيته ينظر إلى رفعت الكأس نحو فمي وقت مرة أخرى إلى الخلاء .

ولم يطل بي الخوف منه بعد قليل فقد شغله عنى طر به عندما دب الشراب في دمه ، وكأني به قد تمنى لو أمسكت عن مشاركته بعد ثلاث كووس ، حتى لا أنقص ما بقي له في الدين . ولهذا رأيته لا يصر على إعطائي كأساً رابعة عند ما أظهرت له قليلا من الامتناع .

وكان في تلك الليلة مدهشاً . كانت أقل لفظة أفوه بها تبعته على أن يتمرغ على الأرض من شدة الضحك . وقد صرت عنده منذ تلك الليلة من أحب الناس وأكرمهم . فصار لا يطيق البعد عنى ، وكما رأني مقبلاً استعد للضحك ، فلا أكاد أنطق

بحرف حتى ينفجر مقهقها كما يعطس الإنسان إذا قربت من
أنفه النشوق .

ولم يكفه هذا بل أذاع عنى بين أصحابه جميعاً أننى نديم حلو
الفكاهة شهى الأحاديث، وأضاف إلى ذلك قوله إننى إذا شربت
ثلاثاً كنت أروع الناس فى المنادمة. سامحه الله ! لقد كلفتنى قالته
هذه مشقة كبيرة فيما بعد .

ومن أعجب العجب أن كل من سمع منه هذا لم ينتظر حتى
يحكم لنفسه ، بل اعتقد صدقه بادئ ذى بدء . فصرت بعد ذلك
لا أنطق بحرف فى مكان حتى تتجاوب أصداء الضحك من كل
أركانه . فلما رأيت هذا تعمدت أن أنطق بالكلام الذى لا يحتمل
الفكاهة ، بل لقد تعمدت أن أنطق بالفاتر البائخ من القول ، ومع
ذلك فما كنت أرى الضحك يزداد إلا علواً . هكذا الناس ،
قلما تجد فيهم من ينظر بعينيه بل يسيرون على هدى آذانهم .

ومهما يكن من الأمر فقد رضت نفسى على تحمل نزوات
صاحبي ، لأن حسناته تغلب السيئات ، وهذا حسبه من الإحسان .
وكننت أجد متعة فى مصاحبته ، فجلنا معاً فى طرق جانبولاد ،
وزرنا حدائقها ومساجدها ، وأسواقها المزدهجة وأحياءها الفقيرة

وأحياءها العامرة بالقصور المنيفة، فوجدتها مثل سائر بلاد الأرض، يسكنها الناس مجتمعين لكي يكرر كل جار بجاره . هذه حقيقة أبدية ليس فيها جديد في جانبولاد . وكنت إذا سرت في صحبة (طوطاط) أسلم من العدوان ، لأن الناس كانوا إذا رأوه فسحوا له الطريق ، حتى في أشد الأسواق زحمة ، مع أنى كنت إذا سرت وحدى لا أنجو من الدفع والخبط ، وكثيراً ما أصابتنى ضربات من العصي إذا مررت بقوم يتعاركون . وقد كنت ذات مرة أسير وحدى في طريق خالية فسمعت قوما يتخاصمون ويتقاتلون فاستغاث بي أحدهم ، فذهبت لكي أعين على السلام والوثام ، وشغلت بسماع حجج الخصمين ووزنها ، وتأمل مواضع الحق فيها ، فلما فرقت بين المتخاصمين بالحق ، وضرت عنهم راضياً ، تلمست ردائى فلم أجده ، فنظرت ورأى وحولى فلم أجده منه شيئاً ، كأن الأرض قد ابتلعتة ، ورجعت إلى مكان المعركة فلم أجده أحدًا هناك سوى شيخ يدب على عصاه . فلما رأنى أبحث سألتنى عم أبحث . فقلت له قصة ردائى وأن قوما كانوا يتخاصمون من أجله فأخذوه . فنظر إلى الرجل فى عطف ثم مد يده إلى وسألنى «حسنة» . فأعطيته ما كان معى وهو قليل، فنظر إلى ما أعطيته

فاحصاً ، ثم انصرف عني وهو يغمغم شامئاً . هذا يحدث لي إذا سرت وحدي ! ولكنني كنت إذا سرت في حجة طوطاط رأيت على وجوه الناس إجلالا وأدبا ، وقد سألته في ذلك مرة فضحك وقال : « من أراد صلاح قوم أخافهم » .

وفي هذا حق كثير بغير شك ، فقد خلق الله في الإنسان غرائز كثيرة ، والخوف من أعجبها أسراراً ، فهو يتشكل في شتى المظاهر كما يتصور الجنى في صور الإنسان والحيوان . فالخوف يتخذ حيناً شكل الحب ، وقد يتخذ شكل الإجلال أو الولاء أو الأدب ، وهو يحمل كل هذه الأسماء مع أنه ليس في الحقيقة سوى الخوف . ولكن هذا الخوف لا يطغى على الطباع إلا إذا انعدم الحب الصحيح ، والخير كله لا يكون إلا في الحب ، ولا تكون الكرامة ولا الصلاح ولا الإنسانية إلا في المحبة .

وقد أطلعتني صاحبي (طوطاط) على حقيقة فذة في جانبولاد لم أشهد مثلها في بلد من البلاد التي رأيتها . ذلك أني رأيت بعض بيوتها تحمل فوقها أعلاماً مختلفة الأعداد ، فبعضها يحمل عشرة والبعض يحمل عشرين أو أكثر والبعض لا يخفق فوقه إلا علم أو علمان . وكانت البيوت التي لا تعلوها أعلام بيوتاً ضئيلة

حقيرة المنظر . فوقع في نفسى من ذلك شيء من العجب ، فعهدى
 بالأعلام أن تكون زينة يقيمها الناس إذا أرادوا احتفالا بمرور
 السلاطين في المدينة ، وسألت صاحبي عن سرها فقال في دهشة :
 ألم تر هذا من قبل ؟ فقلت له : لعل رأيتك ولكنى لم أتنبه إليه .
 فكشف لى عن ذلك السر الخطير الذى تمتاز به
 جانبولاد . فقال : نحن هنا لا نتساهل فى أمر من الأمور .
 كل شيء هنا مقرر على نظام مرسوم . هكذا يحكم تيمور دائماً .
 فانتقل بى خاطرى فجأة إلى الغابة التى رأيتها فى طريقى
 وتذكرت صرخة الفريسة المسكينة . وحقاً أن الحياة الإنسانية
 تكون على مثل تلك الحال إذا هى تركت بغير نظام .
 وقلت لصاحبي فى حماسة : لاشك فى أن النظام أساس
 العمران . فقال وهو يرفع صدره ويميل برأسه فى كبرياء :
 — هنا طائفتان تحكان جانبولاد : الأولى نحن
 ثم أشار إلى نفسه إشارة زهو .
 فقلت فى هدوء : ظبعاً .
 فقال : ولكل أمير منا علامة تميزه . فمننا صاحب الريشة
 ومننا صاحب الريشتين ومننا صاحب الثلاث .

ثم توقف ليرى أثر كلامه على وجهي

فقلت وأنا أنظر إلى ريشته : نعم صاحب الثلاث .

فقال مبادرا : ستكون لي بعد قليل ريشة أخرى . لا شك

أن تيمور يزيدني ريشة إذا عاد من حربته مع بايزيد . وسيعود

بعد قليل . ألم تسمع منذ أيام أنه أسره ووضع في قفص من حديد؟

فخرجت مني صيحة : قفص من الحديد ؟

فقال باسما : نعم . وسيأتي به إلى هنا ليراه في قفصه ، ثم يذهب

به بعد ذلك إلى سمرقند لكي يجعله في طليعة موكبه العظيم .

ثم نفخ صدره وعبس .

فقلت بغير وعي : سيكون بايزيد في صدر الموكب . أليس

كذلك ؟

فصاح بي غاضبا : نعم إنها آية لمجد تيمور .

فلم أشأ أن أجادله في هذا الأمر فقلت : نعم .

فقال وكأنه نسي ما كان يحدثني فيه : سينظر الناس إلى

عاقبة من يقاوم تيمور . هو الأسد الذي لا يقاوم والنسر الذي

لا يسامى . وليس لأعدائه إلا القهر والفناء .

فهزئت رأسي وفي حلقى غصة ولم أملك جواباً، وضاق صدري
بأنفاسي وعادت إليّ صورة الغابة .

فقال صاحبي مستمراً : فإذا عاد تيمور إلي هنا رأينا عدوه في
القفص وشفينا النفوس من كبرياته المحطمة .

فقلت له : إنك تكرهه . هل رأيتَه ؟

فرفع حاجبيه وقال : ولم أراه ؟

فأردت أن أبعده عن هذا الحديث فقلت له :

— وإذا عاد تيمور وضع لك هنا ريشة أخرى ؟

وأشرت إلى قلنسوته . فتذكر ما كان فيه من الحديث وقال :

نعم . ريشة أخرى هنا .

فقلت مشجعاً : ثمّ ثلاثة ورابعة

فضحك حتى تراجع إلى الوراء ، وقال : « إنما هي ثلاث ريشات

ليس بعدها إلا الأذنان » . فصحت ضاحكاً : الأذنان ؟

فقال ضاحكاً كذلك : نعم ذنب واحد أو اثنان أو ثلاثة .

هؤلاء هم أعلى الفرسان . ليس فوقهم سوى تيمور .

فقلت بغير تفكير : إذا فالأذنان في القمة .

فقال موافقاً : ثلاثة أذنان ليس بعدها إلا تيمور .

فقلت : وما ذا يحمل تيمور العظيم . حدوة فرس ؟ سيف ؟
سن فيل ؟

فقال ضاحكا من جهلى : لا بل هى عمامة كبيرة .

ثم نظر إلى عمامتى وقال : أكبر من هذه .

فشعرت بشيء من الكبرياء وضحكت قائلا : ثوب آخر
يجعلها كعمامة تيمور .

فضحك صاحبى كعادته إذا سمع كلمائى ، وضرب بيده على
كتفى ، وكأنه نسى كل الحديث الذى كان بيننا فقال : سيكون
موكبه عظيما بغير شك . وسيعطينى بعد ذلك ريشة أخرى .

نخشيت أن يعود إلى وصف سيده العظيم ، فقلت له مذكراً :
هؤلاء هم أصحاب الريش والأذنان . هؤلاء هم الطائفة الأولى .

فقال وقد تذكر : نعم ، وأما الطائفة الثانية فهم أصحاب القدور .
فصحت ضاحكا : قدور فوق الرؤوس ؟ مساكين !

فعاد إلى الضحك وقال : لا لا ! بل هى قدور ملأى بالذهب
الأصفر الصافى . كلما جمع أحدهم قدراً ختمها ووضع على داره
علماً جديداً يدل على أن قدوره الذهبية قد زادت واحدة .

فهزرت رأسى وقلت كالحالم : قدور ملأى بالذهب !

وأطرت أفكر في هذا النظام العجيب . فما أغلى هذه
الأعلام التي لا يرفع أحدها إلا إذا كان تحته قدر من الذهب .
وذهبت بي الأفكار مذاهب شتى في تصور حال جانبولاد ، حتى
هزنى صاحبي وقال لي « انظر إلى هذا المنزل » وأشار إلى بيت علي
يساري . فوجهت نظري إليه فاترا فرأيته قصر أعظيما تلمع جدراناه ،
وتبتسم بساتينه ، ورأيت فوقه خمسين علماً تخفق في الهواء في مرح
وكبرياء . وقال (طوطاط) . « هذا بيت صاحب السيف . كلمة
واحدة منه تكفي لأن تطيح الرأس عن الجسد فهو صاحب
الأعلام الخمسين . قاضي جانبولاد » .

فاعترتني قشعريرة من سماع هذا القول ، وجعلت أفكر في
أمرى وأمر الناس ، وموضعي في هذا البلد الذي تكفي فيه كلمات
من صاحب الأعلام الخمسين لأن تطيح الرؤوس عن الأجساد .
ولكني ما لبثت أن هدأت نفسي ، فإني جئت إلى جانبولاد لاجئاً ،
ولا ينبغي لي أن أتكلم ولا أن أناقش ، فإذا لم تعجبني هذه
الحال فباب المدينة مفتوح أستطيع أن أخرج منه إلى حيث
شئت . ولم يكن أولى بي من أن أضع لساني بين فكي وأطبق عليه
شفتي . وعند ذلك تبين لي ما يعترى الغريب من الذلة ، ولو كنت

في ماهوش لما رضيت لنفسى إهدار الكرامة ، فاني كنت هناك
أتكلم وأنتقد وأسخر أحياناً ، ولا أسمح لأحد أن يكلم في .
ولاحث لى الحياة في ماهوش عند ذلك أحب حياة على الأرض ،
واشتد حنينى إليها وأطرت حزيناً أستعيد ذكراها .

ولاحظ صاحبي وجوى وإطراقى فقال لى :

— أراك تعبت ؟

وكنت قد تعبت حقاً فقلت له : صدقت .

فأشار إلى مكان مزدحم فى جانب السوق وقال : هلم

نسترخ قليلا .

فترددت قليلا ، فما كان ينبغى لى أن أجلس على قارعة

الطريق فإن هذا مذهب للمروءة .

ولكن صاحبي مضى فى وجهه حتى جلس ، وأخذ يصفق

بيديه فجلست معه ونظرت حولى أدير عيني فى الجالوس ، فلم أرفيهم

شيئاً يستحق التأمل . كانوا جميعاً جالسين بعضهم مسترخ فى صمت

و بعضهم يتخاصم فى صخب ، فملت على (طوطاط) وقلت له :

— أليس فى المدينة من يرى فى هذا النظام رأيا ؟

فقال فى دهشة : ماذا تعنى ؟

قلت : أعنى أن جانبولاد مدينة عظيمة ، وفيها خلق كثير
لا أعلام لهم ولا ريش . فما حظ هؤلاء منها ؟
فقال فى بساطة : من تقصد ؟ هؤلاء العامة ؟
فقلت منكسراً : نعم ، من لا ريش لهم ولا أذنان مثلى .
فقال ضاحكاً : هؤلاء قد عرفوا كيف يصمتون .

فطعننى كلمته طعنة شديدة . وخيل إلى أن عذاب الجحيم
نفسه أهون على من الإقامة فى بلد ليس لى فيه إلا أن أصمت .
وجاء عند ذلك خادم المكان يحمل القهوة . وكنت أحبها
فأقبلت عليها أرشفها ، وشغل عنى صاحبى بمساومة بعض الباعة
الذين جاءوا يعرضون سلعهم يحملونها فى أيديهم أو فوق رؤوسهم ،
وكانت مساوماته أشبه الأشياء بالنضال ، حتى لم يخل بعضها من
الدفع باليد والسباب . وكان الباعة رجالاً يستطيع أحدهم إذا شاء
أن يدير ساقية بزنده ، ولكنهم كانوا لا يحملون من السلع إلا يسيراً
لا يزيد ثمنه على دريهمات . ففهمت عند ذلك السر الخفى . ففهمت
كيف يرضى العامة فى جانبولاد بأن يقيموا فيها خاضعين ، ويضعوا
ألسنتهم داخل أفواههم . فليس بهم من حاجة إلى الكلام
لأنهم فى شغل عن ذلك بهم اقتناص الرزق الضئيل . وجمع

صاحبي كومة كبيرة مما اشتراه من أصناف كثيرة مختلفة الألوان ولم يبق له إلا أن يشتري ليموناً . فتنهت على صوته وهو يشاحن البائع ليأخذ منه ليمونة عاشرة ، فلما سخا له البائع بها أعطاه دانقاً ثم التفت إلى وقال : أف لهؤلاء الباعة ما أشد لجاجتهم !
ولما رأني مشغولاً عنه هزني بيده وقال : أراك غارقاً في تفكيرك . ثم أخذ يجمع السلع ويضعها في منديل كبير ولكن المنديل لم يتسع لثلاثها ، فقلت له باسماً : هذا حمل كبير .
فقال وهو يغمز بعينه : عندي الليلة بعض أصحابي . وحبذا لو كنت معنا .

فتذكرت الليلة التي عربد فيها على^١ وفهمت من غمزة عينه أنه يشير إلى الكؤوس الثلاث التي ظن أنني شربتها ، ولم أجد جواباً أرد به فاستمر قائلاً :

— هم جميعاً من أصحابي المقربين ويسرهم وجودك بينهم . لقد سمعوا عنك وهم يحبون أن يتمتعوا بمديثك . وعلى فكرة — هم جميعاً من أصحاب الأعلام وليس أولى بك من مصاحبتهم .
ومال على هامساً : لا تبعد عن مجالسة أصحاب الأعلام إذا شئت أن تكون لك أعلام في جانبولاد .

فأثارني قوله وقلت : « ما هذه الأعلام التي جعلت جانبولاد لها كل هذه القيمة ؟ وما هذه القدور المختومة التي في باطنها الذهب ؟ إنها لا تزيد على قدور مملوءة بالرمل أو بالطين ما دامت مقفلة » . فضحك طوطاط حتى كاد يستلقي على ظهره ثم قال :
 — سيتغير رأيك إذا أصبحت من أصحابها .

فقلت في عناد : وما الذي يشق عليّ في ملء عشرات من القدور بالحصى . إن قدراً من الخزف لا تزيد على الأخرى إذا كانت مختومة .

فعاد إلى ضحكه وقال : إن تستطيع .

فقلت : وما الذي يمنعني ؟

فقال : وهو لا يزال يجمع بضاعته : الذي يمنع من السرقة .

فقلت : ولكن السرقة جريمة .

وكان قد قام ونادى رجلاً رآه يسير أمامه ، فأمره أن يحمل

له بضاعته ، فجمعها الرجل في حبر ثوبه ، ونظر صاحبي إلى

في عجلة وقال : « ستكون وليمة مرحة ، وأرجو أن تؤنسنا

بصحبتك » .

وكأنه نسي كل الحديث الذي كان بيننا فصار وسرت معه ،

وجعل يحدثني عن صنوف الطعام التي يعدها لوليمته ، حتى بلغنا المنزل فاستأذن وسار إلى داره وهو يغني ، والجمال يزحف من ورائه بحمله الثقيل .

٤

قضيت ليلتي في أحلام متعاقبة عشت فيها مع الأحبة في ماهوش . أرى وطني الحبيب الذي قسا على ! إنك لا تزال في تليبي مع كل قسوتك ، وكلما مرت بي الأيام عرفت ما كنت أجهل من فضلك . لقد هاجرت من وطني لأنني لم أجد فيه مكاناً يرضيني ، ولأنني لم أجد فيه رزقاً يعنيني . ولكنني علمت بعد أن وجدت الرزق في جانبولاد أن وطني كان يمنحني ماهو آمن من كل مال وأطيب من كل رزق . كان يمنحني الكرامة والحرية ، وهما لا يقومان بمادة هذه الحياة كلها ، فواحر قلباه ! ورأيت في حلمي كل الأحبة : رأيت ولدي عجيباً وابنتي جميلة ، ورأيت صديقي أبا النور . ثم رأيت مع كل هؤلاء عليّة . عليّة ابنة علاء الدين التي ملأت قلبي حباً ونوراً . وحدثتها وبثتها لوعة الفراق وناجيتها بأشجاني الثائرة وعاتبته عتاباً طويلاً . لقد فارقت جوارها في

ماهوش ، ولم يكن لها في هجرتي جريرة ، ولكني مع ذلك عاتبتها في حلمي كأنها هي التي هجرتني وخلفتني وحيداً . فلما قمت في الصباح وجدت قلبي ممتلئاً بها . لقد كانت في ماهوش تعيش في قصرها وحوله الحراس والحجاب ، لم أستطع يوماً أن أدنو من أسواره . ولكنها مع ذلك كانت دائماً قريبة مني . قريبة لا يفرق بيني وبينها حجاب لأنها كانت في قلبي . كانت صورة وكانت خيالاً . وما حاجتي إلى غير صورتها وخيالها ؟ إنني لم أبال الجسم الذي يذوى ويمرض ويضعف ويزول ؛ فقد كانت روحى التى تتعلق بها وتجد السعادة فى تأمل كالمها .

وقمت فى الصباح كما دتى فذهبت إلى المعسكر واصلت بالجنود، ثم خرجت أسير فى الطرق وأنا أفكر فى مكانى من هذا الوطن الجديد . هذا البلد الذى لا كرامة فيه إلا لأصحاب الأعلام والريش والذى تحكمه القدور الملائى بالمعدين اللامع . ولم يكن بى من حقد على أحد؛ فلست أنفس على الناس أن يفوزوا بالذهب كما يشاءون ، والذهب عندي لا يزيد على سائر مادة هذا الطين . ولو كنت يوماً راقداً فى ضوء الشمس أتأمل فى خلق الكون وأنا أنظر إلى السماء الصافية وأهيم مع أحلامي فى الملكوت ، ثم رأيت خمسين

قدراً ملأى بالذهب تهوى في الظل على بضع خطوات منى لما تحركت من مرقدى لأذهب إليها . وقد كنت منذ عقلت لا أطمع من هذه الدنيا في أكثر من الرزق الذى يقيم الحياة، لأنى أخذت نفسى بما علمت ، والذهب فى آخر الأمر لن يصاحب الناس إلى القبور . سيخلف الناس الذهب كما يخلفون كل شىء وراءهم بعد الحياة ، ولم يكن الذهب سبيل السعادة فى دار من الدارين . فليس بى من حقد أن يذهب به الناس ويستأثروا به ، وحسبى من الدنيا ما أصيب من رزقى الضئيل . ولكن الذهب شىء والكرامة شىء آخر ، ولا علاقة بين هذه وذاك . فالكرامة حق وهبه الله للناس منذ خلقهم ناساً . فإذا كانت جانبولاد تهب لى القوت لى تسلبنى هبة الله الثمينة فلا مقام لى فيها .

ولكن . أواه من شعور العاجز بعجزه ! فكرت فى أين أهاجر إذا تركت جانبولاد . هذا ما شغل قلبى منذ تلك الليلة فى إصباحى وإمسائى ، وفى نومي وصحوي ، حتى ضاق صدرى وكاد يضطرب عقلى . وأخيراً بدا لى رأى وجدت فيه من ضيقى مخرجاً . عزمت أن أعيش فى عالم أسعى فيه إلى الخير ، وأبذل فيه كل ما أستطيع ، وأهب فيه للناس من قلبى ومن عطفى ، فلن أحس فى

مثل هذا العالم ذلاً ولن أبالي من أمور الناس ههنا . فعزمت على أن أقف حياتي كلها على خدمة المساكين في جانبولاد ، وما أكثر مساكين جانبولاد ! هؤلاء الحفاة الذين ليس لهم من أمر وطنهم شيء إلا أن يصبوا الكفاف من عيش زرى على ما يقومون به من عمل قاطع . استقر رأبي على أن أكون خادماً لهؤلاء أعلمهم وأرفقهم عنهم وأواسيهم ، ورسمت لنفسى خطة قمت على تحقيقها بغير تردد أو تسويف .

فكنت إذا فرغت من صلاتي وفرغ الجنود من تقبيل يدي عقدت لهم مجلساً قبل أن ينصرفوا ، أحاول فيه أن أفتح صدورهم للرحمة ، وأن أبصّرهم بحياة الإنسان . وكثيراً ما كنت أرى في أعينهم الدمع كلما لمست جانباً رقيقاً من قلوبهم ، فكان هذا يملأ قلبي سروراً ، وكنت أحمد الله الذي يفجر من الصخر ينابيع الماء الزلال ، والخير لا بد أن ينتصر يوماً ، والدمع الذي يشور في العين مرة لا يضيع سدى .

فإذا ما انتهى درس الجنود نزلت إلى المدينة أقلب فيها نظري ، وكنت في كل يوم أجد فرصة جديدة أتخذ منها مطية إلى الخير . مساكين أهل جانبولاد ! كنت أمد يدي إليهم فتغنيمهم وإن

لم يكن فيها شيء من الذهب . كم من كلمة طيبة يجود بها القلب فتغذى الروح لا يقاس بها عطاء من فضلات الغنى . وكنت كل يوم أذهب إلى المسجد الأعظم وأتخذ فيه مجلساً إلى جوار عمود ، فيجتمع حولي من المساكين من يتعطش إلى الكلمة الطيبة . وفي هؤلاء كنت أجد السلام والكرامة . كنت أحس أني أصب عليهم مما في قلبي وأضيئهم في حنايا صدري . وما كان أعظم مانت من السعادة في أعقاب هذه الدروس ! كنت أحس أن النور يجلو روحي ، وأن الحق يحل في كياني فيملؤه قدسية ، فإذا بي لا أرى في الكون كله إلا تسبيحا وترتيلا .

هناك بين المساكن كنت أرى الزهر يانعا ، وأشم العطر فياحا ، وأسمع من أنغام السموات ما لا يدركه السمع ، وأفهم من وحي العلام ما لا يبلغه العقل . كان روحي يهيم ويكشف الغطاء عن الأسرار ، ويتلبس بمقائق الأزل ، فلا اللفظ لفظ ولا الحس حس ، بل الكون أنا وأنا الكون . هناك بين المساكين سموت حتى أشرفت على العالم الصغير ، وعلى من فيه من الدبى المغرور : تيمور وجنده من أصحاب الريش وأصحاب الأذنان ، وجانبولاد وعليتها من ذوى القدور والأعلام . وكنت أشير بإصبعي إلى الأنوار التي

كانت تتلأأ في كل مكان أمام بصيرتي ، فيتطلع المساكين ويصدقون ، لأنهم كانوا يؤمنون . علمت المساكين أن في الحياة ما هو أئمن من الذهب ، وأسمى من السلطان ومن القوة ، وأن فيها من اللذة ما هو فوق متعة الأجسام . علمتهم أنهم يستطيعون الاستغناء عن كل قوة وعن كل متعة إذا هم آمنوا بما هو أسمى وأعلى ، في حين أن الدبي المغرور من أمثال تيمور يقضى حياته أسيراً في قيود من الطين العفن لا يستطيع أن ينتزع نفسه منها .

وكانت الأوقات التي قضيتها مع تلاميذي في هذه الحلقة أحب العبادات إلى . وجدت فيها قرة العين ، وفزت فيها بجميع اللذات . فاذا ما انصرفت بعد ذلك إلى داري أقبات على أوراقى وكتبي أقرأ وأكتب . وجعلت ما كتبته وفقاً على من يطالب العلم قرباناً إلى الله سبحانه الذي علم بالقلم .

ولكنى لم ألبث أن صدمت صدمة بددت آمالى .

كنت يوماً في مجلسي إلى جوار السارية أناجى خفى الأسرار فاذا بى أحس شخصاً يقف عند رأسى ، ويضع يده على كتفى . فالتفت نحوه لفتة قصيرة لعله أعمى ضل فعثر بى ، أو فقيراً جاء

يقصدني، فإذا بي أرى فتى أسمر في حمرة، قد أمال قلنسوته إلى يمين، وأبدي من تحتها طرة تلمع فوق الجبين. وقد أطل عارضيه، وزجج حاجبيه، ولف حول وسطه منطقة حمراء من الحرير، فوق ثوب أصفر من ديباج، وهو قصير بدين، يدرج كالدحروجة، ويتدأيل تياها وينظر متحدياً.

فقلت له لأصرفه عنى : « هداك الله إلى سبيلك » .

فقال وقد كشر عن نابه : « أما تعرفنى ؟ »

فنظرت إليه فاحصاً، وصعدت فيه بصرى كرتين، فلم أتبين من يكون ولم يكن لى عهد برؤية مثله، فضاقت عند ذلك صدره وصاح بى : « أنا صاحب الباب وحاجب الحجاب ! قم إلى القاضى ولا تبطىء عليه »

فوقع قوله منى موقعاً شديداً . فالقاضى سيد من أصحاب الخمسين، وقد عرفت نفسى عزوفاً عن مجالس العضاء، فاستعدت بالله من الغرور، وظننت أن سيده قد سمع بى، وعرف ما أقدمه للعلم فى سبيل الله، فأحب أن يظهر لى تجملاً، أو يبعث فى طلبى تقريباً وتلفظاً، وكنت لا أحب أن أفتح قلبى للغرور فإنما الأعمال لله وحده، وما كنت لأبتغى بها عند الناس رياء.

وعزمت علي أن أجعل بيني وبين السلطان سداً ، وهمت أن أرد
الحاجب رداً جميلاً ، وأبعث معه إلى السيد العظيم دعوة خير
أرجو أن تكتب له في صحيفته .

ولكن ما كان أشد عجبى عند ما نادانى الفتى متجهماً ، وأمرنى
في جفاء أن أسرع إلى المجلس فإن لى فيه شأنًا .

ولم أفهم أى شأن يكون لى فى مجالس القضاء ، وليس لى فى
جانبولاد ما أنافس الناس فيه . فلم تكن لى تجارة ولا زراعة ،
بل هى صلاتى ودرسى ، وكتابى وورقى . وإن كان لى رزق فيها
فما قسمه الله لى من عطاء لست فيه شريكاً لشريك أو عميلاً
لعميل . فقلت للحاجب فى هدوء : « هداك الله يا ولدى . لقد
أخطأت فما أنا بمن يطلبه السيد العظيم » . ثم هممت أن أعود
إلى درسى ، ولكنه نظر إلى مغضباً ثم صاح بى حانقاً : « أيها
الرجل قم إلى القاضى فإنه ينتظرك ، لينفذ فيك ما يجب عليه أن
ينفذه من حكم العدل . » فنظرت إليه وإلى حلقة الدرس ، ونظر
التلاميذ إليه ثم إلى ، وطال النظر من بعض إلى بعض ، حتى
نفد صبر الحاجب وكان قوياً فتياً يلمع رونق الشباب فى وجنتيه ،
فتقدم نحوى عامداً كأنه أراد أن يجرنى من الدرس قسراً .

فلم أجد بداً من القيام طائماً ، فهؤلاء أتباع السلطان لا يعرفون
تجملاً ولا ترفقاً . ولما رأيت من تلاميذى بوادى الغضب أشرت
إليهم بالصبر والأناة ونظرت إليهم معاتباً ، فما ينبغي لمن كان
مثلي إلا أن يطيع ولي الأمر إذا دعاه .

وسرت إلى مجلس القاضى ، وأنا أدير فى ذهنى كل حوادث
الأيام والشهور ، لعلى أذكر لى نفسى سبباً مما يجر إلى ساحة القضاء
فلم أجد شيئاً أعرفه ، وحسبت الأمر كله خطأ لا يلبث أن يزول .
ولما دخلت إلى المجلس رأيت السيد فى صدر المكان وله قم ضب
وعينا أرنب ، يخيم عليه ظل الهيبة ، وترنق فى عينه الصرامة .
ورأيت قلنسوته العالية من تحتها لحية تبلغ القبضتين . ورأيت
ثيابه من الدمقس ، وتحتة طنفسة من الإبريسم الحر ، وقد رفع
فوق رأسه الدرّفس ، ووقف الأتباع من حوله خشوعاً ، يسألون
السيوف ويبسطون أمامهم الأنطاع . فوقفت حيناً أنظر فى
ارتياح ، وأترقب حركة فمه المدبب ، الذى يضم بين شفثيه لساناً
فيه مصير الناس من سعد وشقاء ، وأتأمل عينيه الخاويتين ، ومنهما
يطل القضاء . وتمثل لى ما كان فى مجلسه ذاك على مر الأيام ، من
سجن وتعزير ، وغرامة وتشهير ، وقلت فى نفسى أعوذ بالله من

عثرات المقادير ، وتقدمت نحوه باسمًا ، وسلمت عليه محتفياً خاضعاً ،
ثم أردت أن أشكو إليه حاجبه كيف قطع دروسى وروّع
تلاميذى ، فإذا به ينظر إلى فى جمود ، ويرفع يمينه فى جفاء ،
ثم قال بصوته النحاسى : مكانك أيها الرجل !

وكان الأرض قد ماتت بى عند ذلك ، أو كان السماء قد
ماتت وتداعت ، وعقل لسانى عن النطق ووقفت أنظر إليه
وعيناي تطرفان ، وأذنان تطنان . ولا حاجة بى إلى ذكر ما قال لى
كله ، فقد كان مجمله أنى جئت إليه متهماً بأننى شربت الخمر
وقارفت عظيم الإثم ، ونادمت وفاكحت ، وأعنت على المنكرات ،
وأنا رجل أدخل المساجد وأؤم فى الصلوات . وقد شهد على بذلك
من كنت أنادمه ، وسمعه منه الشهود العدول ، ورواه عنهم الشهود
العدول . ثم أراد حرسه الله أن يتحرى العدالة ، وأن يبالغ فى
التدليل ، حتى لا يزل فى حكمه ، فقال إنه قد بعث فى أثرى
العيون وشهدوا أنهم رأونى أدخل إلى بيت صاحبي الفارس فى
الليل . وأخرج منه بعد حين فى هيئة من لاشك فى امتلائه
بالشراب ، إذ كنت أسير مطرقاً ، وأجرر رجلى خائراً ، وأدخل
إلى دارى ، لا ألتفت إلى ورائى ولا أرفع ذبول رداى .

فذكرت عند ذلك ما كان . جازى الله (طوطاط) فكم من مصاب ينزل بالمرء من عبث ، وكم من دواء جرّها على الناس حديث إفك . منذ تلك الليلة التي ندمت فيها (طوطاط) لم يبق في جانبولاد مجلس شراب لا يذكر فيه اسمي ، ولم يبق جمع طرب لا يتحدث بفكاهتي وظرفي . فكنت أوصف بحسن المنادمة وطيب المحادثة ، والأدب عند الشراب والبصر على عريضة الصحاب ، على حين كنت في المسجد أحلق مع تلاميذي في السماء ، وأتقرب إلى الله بفعل الخيرات وخدمة الطلاب ، وأعكف على التأليف والتصنيف والعبادة والتسبيح .

وتقدم القاضي إلى بأن أذفع التهمة عن نفسي إذا استطعت ، فإن العدالة تناديه أن يكشف عن جرمي ، وأن يحمي الناس من ريائي ، ولن يزال بي حتى أتوب بين يديه ، بعد أن يوقع على العقوبة التي أستحقها ، ثم يمنعني بعد ذلك من مخالطة الطلاب ، وتلويث المساجد التي لا ينبغي أن يدخلها إلا المطهرون . فلم أملك من القول إلا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولم أستطع غير التسبيح والحوقة رداً ولا دفعا . ووقفت مبهوتا كأن صخرة قد هوت على رأسي فشدخته ، ونظر القاضي إلى

من تحت جفنيه كأنه أراد أن يخرق بنظراته صدرى ، لينظر ما أخفى وراء جدرانه من دليل على جرمى . ومن العجيب أنى بعد حين أحسست فى نفسى تبديلاً ، فزالت عنى الحيرة ، وامتلاً قلبى ضحكا ، حتى كدت أتهقه فى وجه السيد العظيم ، وأنقض على عثونه الطويل فأهزه وأجبهه . ولكن نظرتيه كانت قاسية فهرب منى الضحك فى لحظة ، ونظرت إلى الشرط والأتباع وهم يتربصون بى أمره ، وينتظرون على إشارته ، وبعد لأى نطقت فقلت : لقد فجأنى هذا الأمر يا سيدي ، فيسرلى من الوقت ما أقدر فيه على جمع نفسى والإدلاء بحجتى .

وكان حرسه الله يعرف أصول القضاء . فلم تأخذه فى عدالته الكبرياء ، ولم يسرع إلى العقوبة قبل أن يبلغ العذر من الإعدار ، وأنا بعد فى يديه إن لم يكن اليوم فغدا .

وذهبت إلى الدار أحدث نفسى حائراً بائساً ، لا أرى أمامى إلاها وظلاماً . وضائق جانبولاد فى وجهى ، حتى فكرت فى الهرب منها متسللاً . وهاجمتنى المخاوف تعذبني ، فلم أجد منها خلاصاً إلا بأن أقوم إلى وضوئى ، لعلى إذا اتجهت إلى صاحب الكون وجدت عنده السلام .

أتى الليل هاجماً على بظلامه فزادني همّاً على همي ، وشملتني رهبة لا أستطيع أن أصفها . فقمّت إلى صلاة المغرب ، وما كدت أقيمها حتى سمعت على الباب دقاً ، فزاد اضطرابي خوف أن يكون ذلك نذيراً بمصاب جديد ، فقد خيل إلى أنه لم يبق لي في هذا العالم إلا سلسلة من الكوارث تتعاقب حلقاتها على مع الساعات . وفتحت الباب في حذر ثم نظرت .

« أهو أنت أيها الحبيب ؟ » . خرجت مني هذه الصيحة وأحسست أن شعاعاً من النور أضاء أمامي ، عندما رأيت صاحبي وتلميذي كمال الدين .

جاء صديقي إلى داري من قبل فلم يجذني ، وذهب إلى مجلس القاضي فدُفِعَ عنه دفعاً قبيحاً ، فعاد إلى داري بعد أن قضى حيناً يهيم في طرق المدينة مهموماً من أجلى . حمداً لله فإن المصائب تهون وإن جلت إذا وقف إلى جانب المرء صديق وفي . لقد اطمأنت عند ذلك على أنني أجد إلى جانبي رجلاً يصدقني إذا تحدثت ، ويواسيني إذا تعذبت ، ويعينني بمؤانسته إذا تحيرت . ولما دخلنا

توضاً صاحبي وصلينا معاً ، ثم جلسنا نتحدث وأقضيت إليه بكل قصتي ، وشكوت إليه عثرتي . والله هو من صديق ألم أجده يتزعزع أو يشك ، بل كان مصداقاً واثقاً ، وجعل يذكرني بالله وما هو جدير به من نصرتي وجلاء غمتي ، حتى أخرجتني من نفسي . فما كان لي أن أبتئس أو أخشى لأن الله عالم بأمرى وهو معي ولن يخذلني . وأشار علي أن نذهب إلى القاضي لعلنا نحدثه في خلوة ، فإنه إنسان وإن كان من أصحاب الحسين ، ولا بد لحجة البريء أن تظهر وإن ساءت الظنون . فقمنا معاً وكان وقت العشاء قد اقترب ، فقلنا ندرك الشيخ فنصلي معه جماعة ، ونتحرم إليه في كنف الصلاة . فلما بلغنا القصر وجدنا عنده حرساً كثيراً ، من شرط وحجاب ، وأعوان وغلمان ، فلما رأونا تقصد الباب نظروا نحونا شزراً ، وأقبل بعضهم على بعض يتهايمسون . فتجراً صاحبي وتقدم فسأل عن الشيخ ، وطلب أن يسمحوا لنا أن نراه ، وتعمل بالعلل فقال : « إن السيد يهيم الساعة بالصلاة ، ونحن نحجب ألا تقوتنا بركة الائتام به . » فضحك أحد الغلمان ثم نظر إلى رفاقه فتضحكوا ، وعاد فنظر إلينا واحداً بعد الآخر من أعلى الرأس إلى أخمص القدم ، ثم مديده إلى جبتي ووضع يده في خروقتها ، وقال وهو يضحك : « خذوا

زينتكم عند كل مسجد» فحذبت جبتي منه في شيء من الغضب وكدت أقذفه بكلمة حانقة لولا أن تدخل كمال الدين متوسلاً يقول: «إن الشيخ حرسه الله لا يرضن على مثلنا أن نصلى معه. فنحن فقيران نريد أن نتملى ببركته». فقام أحد الحجاب إليه ودفعه في غلظة وقال له معنفاً: «اذهب إلى المسجد إن شئت الصلاة، وأما إذا أردت الاحتيال على الصدقة فإننا لا نخدم عن مثلكما». فلأنى الغيظ وجرحت عزتى، وكدت أثور لولا أن جذبني كمال الدين وهمس في أذنى: «ليس لنا من حيلة إلا الذهاب».

وسرنا معاً مطرفين حتى بلغنا المنزل فصلينا، ثم جلسنا نقرأ الأوراد، وما هو إلا أن انصرفت إلى الله بقلبي حتى حل فيه السلام ونسيت كل ما كان.

وكان وحياً قد هبط على فألقي في روعى أن أذهب وحدى إلى القاضى، وأحسست فى نفسى يقيناً أننى إذا ذهبت إليه لم يستطع أحد أن يقف فى سبيلى. فقممت واستأذنت صديقى، ورجوته أن يصبر حتى أعود إليه، وسرت قدماً برأس مرفوع وقلب يجيش ونفس تتحفز حتى بلغت قصر القاضى. وما كان

أشد عجبى إذ وجدت الباب خالياً ليس عليه حراس ولا غلمان .
فدفعت المصراع فانفتح ، وأدخلت رأسى من فرجة الباب فلم أجد
أحدًا وراءه ، فدخلت ورددت المصراع ، وكان الظلام كثيفاً
فسرت أتمسس مواضع خطواتى ، حتى اجتزت مدخل الفناء .
فوجدت باباً آخر فدفعته فانفتح وظهر من ورائه بستان من
فاكهة ونخل وزيجان ، وكانت الدار تشرف عليه محيطة به ، وعلى
نوافذها مشربيات بديعة تبدو أمام العين مبهمه فى الضوء الخافت
المنبعث منها . وسرت فى غير تردد وأنا أتعجب أن يكون القصر
خالياً صامتاً . فآين حراسه ؟ ولم أخفيت هكذا أنواره ؟ إنها
تبص بصيصاً من وراء السجف تم عن قناديل مئات تزهر من
داخل الأبهاء ، وصعدت فى السلم على حذر حتى انتهيت إلى
مدخل البهو ، فهاهذه الأصوات المختلطة ؟ كانت أصوات الضحك
والغناء تتجاوب ويحملها الهواء فى أمواج متعاقبة ، فتخف حيناً
ثم تعلو حيناً ، كأنها آتية من عالم بعيد . وزاد بى العجب وقويت
فى نفسى رغبة الاطلاع ، وازدادت القوة التى فى صدرى دفعاً
ففتحت باب البهو ، فإذا قاعة يضل فيها البصر ، طولها ثلاثون
ذراعاً وعرضها عشرون ، فرشت بأبدع الأثاث وغطيت نوافذها

بخالص الحرير، وأحسست تحت قدمي طنفسة ليننة، تغوص بي
كلما خطوات، ورأيت في صدر القاعة باباً يأتلق النور من ورائه،
وتفوح العطور من قبله. فكانت رائحة المسك تتضوع منه
مختلطة بأبخرة العود، وكانت الأصوات الناعمة يمازجها صوت
أجش له رنين النحاس. وسمعت رجلاً يضحك ضحكة ناعسة بين
كركرة صداحة، كأنها من سجع الطير. وعادت الموسيقى فكانت
سحراً وفتنة، فلم أستطع إلا أن أقف مكاني، وقد غلبني طربها،
فقد كنت منذ صباى مولماً بالغناء. وكدت أنسى أنني دخلت
القصر خلسة، وأنه لا ينبغي لي أن أطيل الوقوف، ثم أفقت بعد
حين وعادت إلى نفسي، فسرت إلى الأمام خطوات وأنا أتعجب.
فما للقاضي والغناء؟ وما هذه الأصوات الناعمة التي تسحر الهواء؟
وفكرت في العودة خاشياً من عاقبة هذه الجرأة. ولكن شيئاً
في قلبي دفعني فلم أستطع خلافه، ثم رأيت باب القاعة يفتح من
أقصى أركانها، فخفت أن يراني أحد فأسرعت إلى أقرب ستار
فتكشيت وراءه، وجعلت أطل برأسي من مخبأى. فرأيت
غلماناً وجوارى يحملون صحافاً وكؤوساً، ثم اقتربت من موضعي
فتاة مثل فلقة القمر، تخطر في أبواب من الحرير الأحمر والأصفر،

فلم أتمالك أن نظرت إليها نظرة، ثم أغضيت وقلت : سبحان من خلقها وسواها . وكتمت أنفاسي حتى بعدت عني ، فاختلست إليها نظرة أخرى فرأيتها تحمل ثياباً وتضعها على أريكة ، ثم رأيتها تعود خفيفة رشيقة ، كأنها مهاة في الصحراء ، أورييم شاردا من كناسه . ولما بعدت عني أطلت برأسي وراءها حتى فتحت الباب ، ودخلت منه ، فنظرت من الفتحة فإذا في صدر الحجرة قلنسوة حمراء ، ومن تحتها السيد القاضي حرسه الله في هالة رائعة المنظر ، من مؤنسات أوانس ، وندامى صباح . ورأيت أمامه طاسات من المدام وتقولا وفاكهة وأزهاراً ، وقماقم من عطور ، وأحقاقاً من غالية ، فكدت لا أصدق عيني ، وثارت الوسوس في نفسي ، وساءلت أفي يقظة أنا في منام . وجعلت أقرص كفي وأضرب يدي على وجهي ، حتى تحققت أنني في صحوة ، وأنني أرى السيد القاضي بعينه وذقنه وفصه ونصه . فقلت أهذا هو الذي يحا كني ، ويقتص للعدالة مني ؟ وامتلات غمماً وهماً ، فقد علمت أن أقسى القضاة في إيقاع حد الخمر من ذاق لذتها وأحس سورتها . وجررت نفسي والألم يعصر قلبي ، فخرجت من وراء الستار لأعود أدراجي ، تاركاً إلى الله قضائي . ومررت في سبيري

بالثياب التي ألقها الفتاة على الأريكة ، وكانت تبرق في الضوء المنبعث عليها من بعيد ، ونظرت إلى ثيابي نظرة قصيرة فأريت جبتي وقيصتي وقد حال لونهما ، وانكششت أكامهما وتقرزت جوانبهما ، وتهتك أعلاهما وأسفلهما ، فعذرت الحجاب في منعي ودفعي ، واستقر رأبي على أن أقترض ثياب الشيخ قرصاً حتى أستطيع إذا لبستها في الصباح أن أجد إلى بابه سبيلاً . وليس على من بأس إذا أنا اقترضتها عارية ، ثم رددتها إلى السيد من بعد سليمة طاهرة . وخطفت الثياب وسعيت بها جرياً ، ثم قفزت في رحاب القصر قفزاً ، جتي بلغت الفناء ، وخرجت أعدو حتى بلغت داري وأنا أتلفت إلى ورائي . وكان صاحبي كمال الدين لا يزال في حجرتي يغط في نومه ، فلم أشأ أن أوقظه فإن متعته في الصباح تكون أعظم إذا رأني أطلع عليه في بريق الثياب .

ولما ذهبت في الصباح إلى مجلس السيد الشيخ ، وقفت عند الباب أريد الاستئذان ، فقام الحجاب يسارعون . وحنوا إلى الهامات وهزوا إلى القلائس ، وأظرقوا لا ينظرون إلى وجهي ، وفتحوا الباب على مصراعيه ، ووقف بعضهم عن يمين والبعض

عن شمال ، حتى دخلت . وكان السيد في صدر المجلس ، فوقع
بصرى عليه ووقعت عينه في عيني . ثم رأى ملابسه تلمع
على ، وعرف أنني رأيت كل شيء . فقفر فاه كأنه يهيم
بالصياح ثم أخذ يجمع ثيابه ويلتمس رداءه ، ثم تحرك قائماً
يبرق بعينه ويختلج في خفيه ، وأقبل نحوي قائماً ذراعيه ،
وانطلق في تحية طويلة مؤهلاً مسهلاً مرحباً مستبشراً ، حتى
تلاقينا في وسط القاعة ، فضمني إلى صدره ضمة مودة ، وترك
كل من حوله وأقبل على فأجاسني عن يمينه ، وأخذ يحيني
ويؤنسي ، حتى هدأ روعي ، وذهب عني وجلي ، وصاح في
حجابه أن يسرعوا في خدمتي ، وأمرهم أن يعدوا لي قهوة
وماء ورد لأستروح وتذهب عني بهرة السير . وما زال بي حتى
شرح صدرى وفك عقدة لساني ، وبدأت أقص عليه قصتي
في قول مبين وحجة ظاهرة ، وأظهرت له الحق كله فلم أخف عنه
شيئاً ، ولم أحاول أن أعذر ولا أن أستتر ، حتى أفضيت إليه بكل
ذات نفسي . فتبسم حرسه الله وأخذني من تحت إبطي ، وانتحى
بي جانباً وجعل يسألني عن تفصيل أحوالي ، فلان قلبي له وزالت
حفيظتي عليه ، وهممت أن أعذر إليه من أخذ ثيابه ، وأعدته

بارجاعها إليه . ولكنه لم يمكني من المضي في حديثي ، بل عانقني عناق الصديق ، ومد يده فدمس في جيبي كيساً ثقيلاً ، فتحته فيما بعد فوجدت فيه مائة من الدنانير صافية وافية . ولما استأذنته آخر الأمر في الانصراف سألتني هل جئت إليه راكباً ، وهل حملني جواد أم سعت بي إليه أتان ، فنظرت إليه في خجل وقلت :

— لقد كنت دائماً أسير على قدمي منذ بعث صديقي .

فضحك حتى كاد يهتز عن وقاره وقال : أ كنت تركب الصديق؟ فقلت له باسماً : « هذا صديق كان لي في وطني ماهوش ، وكان الناس يسمونه حمارى ، وكنت أسميه البطل الصامت حتى لا أشارك الناس في شتمه » .

وخفق قلبي عند ذلك خفقة شديدة إذ تذكرت صديقي المسكين الذى اضطررتي الحاجة في وطني إلى بيعه ومفارقتة ، وأطرقت حزينا .

فقال لي السيد : « لا عليك أيها الشيخ المبارك . فما كان مثلك ليسير في جانبولاد راجلا » .

ثم أسرع إلى ظاهر المجلس ونادى حاجبه ، وأمره أن يعد لي بغلته الشهباء . ثم نظر إلىّ في عطف وقال :

— هي بغلة فارهة ، مباركة الخطوات ميمونة الروحات
والغدوات ، بارك الله لك فيها ، ولا تنس أن تختلف إلينا عليها
وأن تذكرنا بالدعاء في صلاتك .

فسرّني عنى كل ما كان من هـى ، وأحسست للسيد حرسه الله
شكراً يملأ قلبي . وسرت عندها كباً بغلته لا بساً ثياباً وعمامته . وكنت
على طول الطريق أدعو الله له ليجزى عنى فضله ويغفر له ذنبه .
وكان أهل جانبولاد ينظرون إلىّ وأنا سائر ، فاذا قربت منهم
تواثبوا لتحتيتى ، وأشار البعيد منهم إلى بالبنان . وقضيت سائر
اليوم فى دارى عاكفاً على الصلاة أشكر الله وأسبح له تسبيحاً .

٦

أتسعت بعد ذلك حلقة دروسى وضاق بها المسجد حتى
كادت تمتنع على الناس الصلاة فدعاني هذا إلى أن أتخذ داراً
خاصة جعلتها مدرسة أعلم بها الناس كباراً وصغاراً
وكنت قرأت فيما قرأت عن أرسطو أن غاية التعليم أن يعرف
المرء كيف يستخدم وقته إذا خلا من العمل . ولست أدرى
لعمري ما الذى حمل هذا المعلم الأول على أن يدعى مثل هذا

الزعم؟ إن الناس إذا خلوا من العمل لم تعوزهم الحيلة في استخدام وقتهم الفارغ، فالطبائع توجههم وتحتال لهم، وتميل بهم وتشرده. أما أنا فقد رأيت أن السعادة والخير لا يكونان إلا في العمل، العمل الدائم وإن تغير وتنوع. ولا خير فيمن يخلو من عمل إلا إذا دخل في سواه. وقد جعلت هذا المعنى شعارى وأذعته في دروسى وأحاديثى.

جعلت أعلم تلاميذى أن أقل مراتب الإنسان أن يبذل وقته فيما يعود عليه بالمسرة وحده، وإن كانت مسرة مباحة بريئة. فالذى يقضى وقته في نزهة إنما يبلغ أدنى مراتب الإنسان، والذي يسلى نفسه إنما يبلغ هذه المرتبة عينها، إلا إذا كان في نزهته وفي ترفيهه إنما يتخفز إلى خير أو يساعد عليه من بعد. وعلمتهم أن الذين لا يعملون بل يجدون أوقاتهم فارغة يمتثلون على قتلها هم الطفيليون على مائدة الحياة. هؤلاء يطردهم الله من رحمته وإن كانوا لا يقارفون شرًا. لأنهم لا يعرفون السلام ولا يعينون على الخير.

وقد بدا لى بعد حين من مقامى فى جانبولاد أن التعليم وحده لا يجدى إذا لم تصحبه الأعمال. فإن أسمى اللذة فى الخير

لا يجدها من يتأمله بعقله ، بل من يبشره بعمله . فأقبلت على ذلك القصد مع تلاميذي ، وتحاملت فيه على نفسى مع ضعف حولى وقلة ذات يدي ، ولو كنت من أصحاب الأعلام لما احتجت إلى معونة من غيرى ، ولكن ما حيلتى ولم يكن لى فى جانبولاد قدور ؟ ففكرت أن أتكفف الناس أطلب منهم المعونة على مقصدى . ولكن الله يعلم ما قاسيت فى سبيل ذلك من عنت ؛ فقد عجزت مرة بعد مرة ولم تقدنى ملابس القاضى شيئاً فى جمع المال . وقد يجود الناس بالتحية وحو القول ، ولكن حلو القول لا يعين على ما كنت أسعى فيه . فأطلت التأمل فى هذا الأمر وتحديث فيه كثيراً مع تلاميذى . فقال لى كمال الدين يوماً : « إنه من التعسف أن تكلف الناس ما تأباه الطباع . فهل تطمع فى جانبولاد أن يحرم الناس أنفسهم بعض مسراتهم فى سبيل إطعام الجائع الذى لا يجد لقمة ، أو كسوة العارى الذى يرتعد من شدة البرد ، أو مداواة المريض الذى يقع فى الطريق من الإعياء ؟ ما كان ينبغى أن نطلب من النار أن تطفأ بالرجاء ، أو أن نطلب من الماء فى القاع أن يعلو صعدا إلى القمم » . فكانت تلك كلمة صريحة صارمة ألفت اليأس فى قلوبنا . ولكنه أردف قائلاً :

« من شاء الخير فليتدسس إلى الشهوات . »

فنظر تلاميذي بعضهم إلى بعض وتصايحوا : « نتدسس إلى الشهوات ؟ هذا مستحيل . وما جدوى الخير إذا كانت الشهوات سبيله ؟ » فقال كمال الدين مترقياً : « أقصد أن نتدسس إلى المسرات ! » . فقال التلاميذ : « نعم . أما هذه فلا بأس بها » وأخذنا ندبر الخطة المحكمة .

بالاختصار جعلنا نعقد في المدرسة كل أسبوعين مجلساً للهو ندعو إليه عليّة جانبولاد وأوساط أهلها ، وكنا نحشد فيه المغنين وصناع اللهو والمضحكين وجعلنا لذلك أجراً ، فكنا نأخذ من البعض ذهباً ومن البعض الفضة ، كل على قدر وجاهته . وكنا نميز أصحاب الذهب بمقاعد في الصدر ، فكان هذا كافياً لأن يبذل الجميع ذهباً حتى صارت القاعة كلها مقاعد صدر .

وكان نجاحنا منقطع النظير فإن عليّة جانبولاد أمرعت إلى التلبية ، ولم يردّ أحد منهم دعوتنا . وانتهال علينا المال انهياراً .. فأمكننا أن نطعم الفقراء ونكسو المساكين ونعين المرضى على الدواء ، ولكنني مع هذا النجاح كنت أحس في قرارة نفسي أنني أخطأت سبيلي ، وأني أحيى ألف سيئة في سبيل حسنة

واحدة . وما قيمة الخير إذا لم يفعله صاحبه متجهاً إليه ؟
 وكنت أحس أن الله لن يرضى عن عملي ولن يقبل خيري . ولم
 ألبث أن وجدت عقوبة الله أمامي . فما كان الله ليبارك في خير
 جاء عن سبيل الشهوات .

٧

عاد تيمور إلى جانبولاد بعد أن قهر الملوك وقتل الجيوش
 وأتى معه بعده بايزيد العثماني في قفص من الحديد ليراه الناس
 ويعتبروا ويمجدوا في الأرض اسم تيمور .

ولم تطاوعني نفسي على الخروج مع الناس لرؤيته . فما حاجتي إلى
 رؤية منظر شهدت مثله في الغابة من قبل اوزاد من زهدى في
 رؤيته ما سمعت عن منظره ، فقد قيل إنه أشبل اليد والرجل ، تعترض
 وجهه ضربة من سيف تركت فيه جرحاً غائراً يجعل نظرتة كمنظرة
 الفهد . فأثرت الذهاب إلى دار صديقي كمال الدين لأقضى عنده
 اليوم ، لأن مدرستي كانت خاوية إذ خرج أكثر تلاميذي كما
 خرج الناس لرؤية موكب المنتصر . ولست أوم أحداً منهم على
 ذلك فإنه من طبع الإنسان : كان الإنسان منذ القدم يعبد
 الأقوياء القساء .

ولم يكن كمال الدين وحده في الدار، بل كانت معه أخته الصالحة الكريمة (نجوى) . نجوى الطاهرة البتول التي كانت لأخيها كل ما في الحياة .

كانت شابة في البضع والعشرين وإن كنت كلما حدثتها رأيت من عقلها كمال الحسين ، وكنت كلما نظرت إليها تذكرت عليّة ابنة علاء الدين .

كانت لها عيناها الواسعتان وجبينها الواضح وصفحة وجهها الوضاء . حتى لقد كان يخيل إلى أحيانا أنها هي التي رأيتها في الهودج المزركش في موكب السلطان في ماهوش .

قضينا اليوم معاً وكان يوماً من الربيع . والربيع مازال منذ الصبا يهزني ويطربني ، ويعتريني فيه خشوع وتشملني فيه رقة ، كأن زهره يتفتح في قلبي، وكأن طيره يتغنى في حنايا صدري ، كأن الربيع دائماً يجمعني بالخليقة ويمزجني بالوجود ويوحى إلى أسمى المعاني . ولكن الربيع في ذلك اليوم كان أكثر سحراً ونشوة .

سرت في الحديقة الصغيرة أنقل طرفي من عود إلى عود ومن زهرة إلى زهرة، على حين جلس صديقي في ركن منها يصلي ويقرأ الأوراد . وذهبت (نجوى) إلى شؤون البيت كعادتها إذ تمهن

لأخيها . وقد وجدت في تأمل المخلوقات عبادة أسمى من كل عبادة إذ كانت كل ورقة تملأ صدري سلاماً وشكراً ، وكل حشرة أخص بنظري أعضائها وحركتها تملأ عقلي علماً وخضوعاً . وقضيت في جولتي حول الحديقة الصغيرة ساعات كنت فيها أحلق في الآفاق وأهيم في الوجود من الأزل القديم إلى الأبد المقيم إلى ما شاء الله ، وكان أقل ما يقع عليه بصرى يفتح لي عالماً لا يقل عن القضاء الفسيح في روعته وجلال أسراره .

رأيت عنكبوتاً ضئيل الجسم لم أكد أتبينه في ضوء الصباح ، ورأيت بيته الواهي وقد انعقدت عليه قطرات من الندى تلمع عليها أشعة الشمس بألوان لا حصر لها ولا يستطيع اللسان وصفها ، ورأيت المخلوق الصغير يتحرك ويلقى من فمه خيطاً لا تبصره العين إلا إذا لمع عليه شعاع من الضوء ، فمددت إليه أصبعي فعلق به وإذا بالعنكبوت يتعلق بخيطه في طرف أنفاتي ويهتز في الهواء مترججاً ، ثم رأيت يتسلق الخيط حتى كاد يلمس أصبعي ، فهزرت يدي فإذا به يسرع فيمد من فمه غزلاً رقيقاً تطاول حتى صار على أكثر من ذراع مني . فملأني هذا الخلق البديع عجباً . هو آلة دقيقة الصنع عجيبة التركيب لا تكاد العين ترى لها جرماً ، ومع ذلك

فله أرجل وأطراف وفيه حواس لا أدرى عددها، وله أهداب وأجهزة وفم ومعدة وآلة لإفراز هذا اللعاب الدقيق الذي لا يخونه إذا امتد ولا ينقطع به إذا تسلقه . كل هذا قد اجتمع متناسقاً في نقطة ضئيلة لا تكاد العين تبصرها ، فسبحانك يا الله !

وانتهى صديقي من أوراده وجلس ينتظرني . وكانت (نجوى) قد جهزت طعاماً للافطار ، أتم الله عليها نعمته وأسبغ عليها فضله ، فدعنتني إلى الطعام . وما كان أطيبه ! ثم قضينا سائر اليوم في درس وتأمل وحديث طيب وصلاة ، وكان مجلسنا يفيض بنور الله ، لم أحس فيه أنني معلم ألقى الدروس ، بل كنت أتعلم من صاحبي أكثر مما كنت أعلمهما . كانت (نجوى) إذا تحدثت فتحت في قلبي ينابيع من الفيض فأغرق في تأملي حيناً ثم أطفو وقد امتلأ قلبي يقيناً . ولست أدرى ما ذاك الذي كانت تحدثه في بنظراتها الوديمة . كانت تستمع لما أقول وتنظر إلى بعينيها الواسعتين الحاملتين ثم تنطق بكلمة أو بكلمات فإذا بي أسمع معنى لم يجلب من قبل بخاطري . وقد تنظر إلي صامتة فإذا بي أرى عالماً خفياً من الأسرار يفتح أمام عيني . .

كانت نفسها الصالحة تتصل بالملأ الأعلى، فإذا هي نطقت

أنفذت بصرى الكليل إلى طرف منه فألمح لمحة سريعة تكفى
لأن تفيض على من النور القدسي فيضاً غامراً .

ولما ذهبت إلى بيتي مع وسط الليل كنت أحس أنني لا أسير
فوق الأرض بل تحملني أجنحة الملائك على متن الهواء ، حتى
كأن السحب قد صارت تحت مسراى وكأن تيمور وشيعته
و بطشه وخوفه كانت كلها تحت مواطئ قدمي .

ذهبت إلى منزلى وجلست على كرسي كبير لم يكن في غرفتي
سواه إلى جوار النافذة المطلّة على الفناء ، وأشعلت المصباح ولم يكن
به سوى القليل من الزيت ، فجعل يتراقص ويطلق ولا يكاد
نوره يبلغ زوايا المكان . فبدت الأركان بعيدة كأنها تنتهي إلى
الأفق في طرف السماء . وأغمضت عيني وأنا جالس على الكرسي
لا أريد نوماً ولكني وجدت في الغمض راحة أنست إليها .
فأخذتني سنة من النوم فتحت عيني بعدها على صوت سمعته
يناديني . فتلفت حولي ثم نظرت إلى النافذة ورأيت فرأيت
شخصاً واقفاً قد وضع مرفقيه على حافة النافذة واتكأ بذقنه
على كفيه ، فوسعت عيني لأتبينه في الضوء الخافت فإذا به صاحبي
(طوطاط) وبادرني قائلاً : « أين كنت بالأمس ؟ » .

فقلت له منكرًا : « وما سؤالك عن هذا ؟ »
 فنظر إلى معاتبًا وقال : « لم تذهب إلى لقاء تيمور . وقد سألت
 عنك » . فصحت في فزع : « تيمور يسأل عنى ؟ »
 فقال جادا : « وما تعجبك من هذا ؟ » .
 فقلت : « إنه لم يرنى » .
 فقال ضاحكا : « ولكنه يعرفك . ألا تفهم ؟ إن تيمور
 لا يخفى عليه علم بأحد » .
 فأزعجني قوله وداخلى منه هم زادنى قلقًا ، فأطرت صامتًا
 أفكر فيما لعله ذكرنى به . فقرب (طوطاط) منى وهمس فى
 أذنى « احذرا » .

فقلت له مبادرًا : « مم أحذر وما بى ما أحذر منه ؟ »
 فقال جادًا : « أجم لسانك هذا . كفاك ما صنع بك » .
 فنظرت إليه فى دهشة وقلت : « لسانى أنا ؟ »
 فقال لى فى حنق : « نعم . فما هذه الدروس التى تلقىها .
 وما هذه الكرامة الإنسانية التى تتحدث عنها ؟ ثم ما هذه
 الأغانى التى توسع لها صدر مدرستك ؟ وما ذا عليك إذا شئت
 الغناء أن يجعله فى بيت رجل مثلى ليكون طرفك فى ستر وتجميل ؟ »

ثم غمزني في ذراعي هامساً : « لا تذهب إلى المدرسة منذ اليوم ، فقد أمر تيمور بإغلاقها » .
قال هذا ومضى عني مسرعاً .

كانت كلمته هذه مثل الصاعقة تنقض علي ، واسودت الدنيا في عيني ولم أدر ما إذا أصنع . وشعرت عند ذلك أول مرة أنني واقف وجهاً لوجه أمام تيمور ، وتمثلت لي كل قوته وكل سطوته وأحسست الخوف يملكني . لقد كنت من قبل أتأمل جبروته بالفكر وأسمع عن بطشه بالأذن ، وأمقت كل هذا وأنا بعيد عنه ، ولكنني عند ذلك رأيت نفسي وضعفي أمام سلطانه الهائل ، نجيم اليأس على وشلّ حركتي .

فقت منتفضاً عن مقعدى ، وقد شعرت بأنه لم يبق لي في جانبولاد مقام ؛ فإني لا أستطيع البقاء فيها إلا إذا رضيت بأن أذهب إلى تيمور وأتمسح عند أقدامه .

وقت إلى الصلاة . واتجهت إلى الله أن يسدد خطاي وأن ينقذني من الوسوس ، فلما فرغت منها عدت إلى نفسي أحاسبها حساباً عسيراً . فهي التي زينت لي اتخاذ دار العلم مسرحاً للهو ، وهي التي جعلتني أفرط وأسف في سبيل الذهب . وامتلاً قلبي

سخطاً على ذلك المعدن الخسيس الذي أضلني فإن الله لم يجعل سبيلاً إلا على من ظلم وأخطأ . وأقبلت على صلاتي أستغفر فيها ربي من ذلك الإثم الذي وقعت فيه . وجعلت أناقش نفسي وأحاجها في الهجرة وترجحت بي الميول بين المشقة وبين الكرامة ، ولم أستطع أن أهتدي إلى رأى بينهما إذ كان أحلى الخطين مرأً . وفيما كنت في حيرتي برقت لي بارقة من الأمل فالتقي في روعي عزم رأيت فيه فرصة الخلاص مما كنت فيه . بدالى أن الهجرة نوع من الهروب وأنتى لا ينبغي لى أن أهرب حتى أبلى في سبيل الحق بلاء ألتس فيه العذر لنفسى ، فإذا اضطرت بعد ذلك إلى الهجرة لم أجد على نفسى سخطاً أو لوماً . فعزمت على أن أقيم في جانبولاد وأن أجاهد في سبيل الحق ما استطعت ، وأن أقابل الجبروت بالتحدى ، وأرفع رأسى كريماً لا أحنىه لقوة ظالمة ، فإذا أصابنى من ذلك ما يصيب الشهداء كنت قد بلغت عذرى . وامتلاً قلبى يقيناً بأننى لن أخشى قوة الطغاة . فوالله إن الحق ليصرعهم لو نطق به من ملأه الإيمان .

وعزمت بعد ذلك على أن أصحح مكانى في جانبولاد ، وأن

أضع نفسي حيث كان يليق بها أن تكون . فإني لم أكن أقل
من أصحاب الريش والأعلام . بل إنني كنت لا أرضى بأن
أكون مساوياً لهم . فإذا كان سادة جانبولاد قد تواضعوا على
أن يجعلوا الأمر كله لأنفسهم ، فلن أسمح بأن أكون دونهم في
شيء . عزمت على أن أدخل نفسي قسراً إلى المكان الذي
يليق بي . وما كان لمثلي إلا أن يكون في المحل الكريم .
وما كدت أستقر على هذا الرأي حتى أخذت في الاستعداد له
واجتهدت فيه اجتهاداً كبيراً .

٨

كانت الأعلام في جانبولاد لا ترفع طبعاً إلا إذا ملأ الناس
قدوراً من الذهب بعددها ، ولكن مالى وللذهب ؟ قد رسم السادة
خطتهم على أن يجعلوا الذهب وفقاً عليهم ، فكانت النتيجة أن
الذكاء والعلم والأدب والخير والفضل لم يصبها منه شيء ، إذ
لم تجعل لها قيم في خطتهم المرسومة . وما كنت لأقيد نفسي
بقواعدهم منذ عزمت على أن أطيع الحق وحده ، ولا أنظر
إلا إلى جوهر الأشياء . فلو أنصف الناس لجعلوا المكان الأول

في القيم كلها للذكاء والفضل وأمثالهما مما ضاع قدره في جانبولاد .
 ومهما يكن من الأمر فقد استقر رأيي على أن أستغنى عن
 الذهب وأنخذ لنفسي معياراً رمزياً أجازى به الأفعال بما تستحقه .
 والذهب بعد التفكير لا يزيد على أنه معدن مثل كل معادن
 الأرض ، فهو كالحجر لا يزيد على أنه من عناصر الطين ، وهو
 لا يستحق كل هذه العناية التي يحيطونه بها ، إذ هو لا يؤكل ولا
 يشرب ولا يلبس ، وشربة واحدة من الماء إذا لم توجد تكون
 أغلى من كل ذهب الأرض . وإذا كان المقصود إنما هو وضعه
 في القدور وختمها بعد ذلك فلن يضير القدور شيء إذا ملئت
 بشيء آخر كالحصا أو الحجارة ، ولن تكون قدر من الخرف
 خيراً من أخرى لأن واحدة مختومة على ذهب والأخرى مختومة
 على حجارة .

فعمدت إلى قرطاس كتبت عليه أنواعاً من العمل ، وكتبت
 أمام كل منها ما يستحقه من وزن الذهب لو أنصف الناس ، ثم
 عمدت إلى قرطاس آخر كتبت عليه أنواعاً من النقص أو الظلم
 أو أعمال السوء ، وجعلت ما يقابلها من العقوبة مقدراً بوزن
 الذهب . وعزمت على أن أحاسب نفسي على أعمالها جميعاً فأقدر

ما قدمت من خير وأجعل لكل عمل من ذلك وزناً ألقيه في قدر - أقصد وزناً من الحصى بدلا من الذهب . فإذا ما امتلأت قدر ختمتها ورفعت على داري علماً ، وكلما ملأت قدراً وختمتها رفعت علماً آخر . ولم أنس محاسبة نفسي على ما تجترم من الذنوب ، فعزمت على أن أنقص من القدر ما يعادل قيمة عقوبتها على آثامها ، حتى لا يبقى فيها إلا وزن ما هو باق لي من الحسنات الخالصة . وكنت في ذلك متحرجاً متأمناً ، فإن الله قد وعدنا بمعشر البشر لما علم من ضعف الطبيعة الانسانية أن تُجزى على الحسنات بعشرة أمثالها ، وألا تجزى على السيئة إلا بمثلها ، فبالغت في الحيلة وجعلت الحسنات والسيئة سواء في الأجر والعقوبة .

ولأضرب مثلاً مما وضعت من القيم لأبين أنني لم أغال في التقدير ، فقد جعلت لإطعام الفقير وزن حبة من الرمل ، ولعيادة المريض وزن حصاة صغيرة ؛ فإن هذه من الواجبات التي لا ينبغي لأحد أن يطلب عليها الأجر . وجعلت لكتابة رسالة في الأخلاق وزن حصاة كبيرة ، ولكتابة رسالة في التاريخ وزن درهم لأنه سجل الأمم وهو يعلم الناس أن الحياة تفتى ولا يبقى على الدهر إلا الخير ، وأن الظلم مرتعه وخيم ، وأن العسف لا يقيم الدول إلا إلى حين .

وجعلت لكتابة القصة وزن أقة لأن القصة لا يقدر عليها إلا من وهب الله له من فضله. ولم يكن في تقديري مبالغة فإن الخلفاء العظماء كانوا فيما مضى يجيزون الشعراء بمئات الألوف من الدراهم على أبيات في المدح الكاذب، أو في وصف الحر واليهو، فإذا أنا جعلت للقصة وزن أقة واحدة من الذهب لم أكن مغالياً. وجعلت لتعليم الناس قدراً كاملة - نعم! قدراً كاملة، فالتعليم يطهر النفوس ويبنى أساس المستقبل ويفهم الناس معنى الانسانية. فإذا أخرج المعلم رجلاً كاملاً أضاف به إلى الأمة ثروة لا تقدر بمال. وما كنت لأبخس التعليم حقه وأنا أعرف قيمته، ولن يضيرني أن تيمور وعليه جانبولاد لا يعرفون له قدره. فإن الحقائق لا يستطيع إدراكها إلا من يسمو بذكائه إلى المعاني العليا.

ولما انتهيت إلى ذلك أخذت في إعداد القدور والحصى واستطعت أن أملاً لنفسي قدرين كبيرتين، ثم عمدت إلى ثوب فقددت منه ما يكفي لصنع علمين، فما أتى العصر حتى كان علمان أصفران بديعان يخفقان في الهواء فوق داري.

ثم أسرع إلى دار صديقي كمال الدين لأقضي معه ساعات في الدرس والعبادة، إذ قضيت اليوم كله لاهيا عن عبادتي،

وأحسست شوقاً إلى مجلس العلم ، وحمدت الله إذ بقي لي في جانبولاد صديق أتذوق معه لذة الدرس . فلما طرقت الباب فتحت لي (نجوى) الكريمة الصالحة ، فهشت إلى وبشت ، ونظرت إليها وكأن نوراً يشع منها إلى قلبي . وخفق قلبي فأسرعت داخلا وأغضيت حتى لا أطيل النظر إليها . ولست أدري لم كانت صورتها تنطبع في خيالي وتعاودني في خلواتي وتلازمني في سيرى ، حتى كادت تنافس الصورة التي طويت عليها جوانحي وجعلتها رمز الكمال والأمل : صورة عليّة ابنة علاء الدين .

وبعد قليل جاء أخوها ، فجلسنا ثلاثتنا نتدارس ونتعاطى أطيب الحديث ، وصلينا وقرأنا الأوراد حتى مضى صدر من الليل ، وأخبرتهما بما كان من أمرى ، فاختلفت فيه الآراء ، وراجعني كمال الدين في رأبي مراجعة شديدة ، ولكنني ما كنت لأرجع عن أمر تبين لي فيه وجه الحق ، ولم يراجعني كمال الدين إلا لأنه خشي عليّ من عواقبه . ولكن ما هذه العواقب التي يخشاها ؟ إن الحق واضح ولا يليق بنا أن نتردد فيه .

ثم قمت عائداً إلى داري والسرور يملأ قلبي ، والأمل يضيء

لى سبيلى ، ولم أنسَ أن أذكر نظرة (نجوى) عندما ودعتها .
لقد خفق قلبي خفقة شديدة عندما نظرت إلى عينيها
الواسعتين ، ولست أستطيع أن أعبر عن أثر نظراتها فى نفسى ،
فإن الألفاظ تتضائل عن وصفه بـ تلك الألفاظ التى لم يتخذها
الناس إلا مطية لما اعتادوه من معانيهم : حقاً أنى لم ألبث أن
غضضت من بصرى وسرت عنها مسرعاً ولكنى جعلت ألوم نفسى ،
فما كان ينبغى لى أن أستبيح تلك المتعة من النظر إلى جمالها البارِع
وملء عيني منه . ومضيت فى سبيلى وصورتها ماثلة فى قلبي حتى
غلبت على صورة عليّة ابنة علاء الدين . مالى وعالية ! إنها ليست
إلا خيالاً، وهذه (نجوى) الطاهرة التى كنت أسمع حديثها وأستوحى
العلا من نظرتها . (نجوى) التى كنت أراها حقيقة أمامى . وما
يدرينى إذا أنا رأيت عليّة وحدثتها كيف أجد حقيقتها ؟ ألا أراها
ترفع حاجبها استعلاءً وتزورُ عني ولا تهش لى كما تهش نجوى
الكريمة إذا لقيتها ؟

بلغت منزلى أخيراً ولم أنسَ أن أحاسب نفسى على نظرتى التى
نظرتها . فأخذت حفنة من الحصى من إحدى القدرين وقذفت بها
إلى جانب ، ثم قمت إلى أحد العلمين فخططته عن دارى ريثما ييسر

الله من الحسنات ما يعوض ذلك النقص . وأطلت في ليلتي من
القيام بالصلاة لعل الله يتجاوز عن خطيئتي . وعزمت على أن
أمسك قلبي من بعد فلا أنظر إلى (نجوى) إلا كما نظر موسى
إلى النور المقدس .

٩

كانت الليالي بطيئة كأنها تزحف زحف الدبى، وكانت النجوم
تلمع من وراء القضبان الحديدية الغليظة كأنها قد سمرت في
مواضعها من السماء . وكنت أفقف من البرد في سجنى المظلم،
ولولا الصلاة وقرّة عيني فيها لتمزق صدرى من غيظه وتطايرت
عنه أضلاعى . قذف بى فى السجن كما ترمى الهرة فى البئر أو كما
يخبط الحجر فيتدحرج إلى الهاوية . وقد حاولت أن أعرف
ما الذى دعا إلى سجنى وأنا رجل قد كفيت الناس كل أمرى
فلم أستطع أن أهتدى إلى شىء ، لأن السجنان الفظ كان يأبى أن
يكلمنى ، وكنت لا أرى سواه إلا بعض رفاق كانوا مثلى لا يعرفون
لهم جريمة .

وبقيت كذلك إلى أن أحسنت يوماً على جدار جحرى

حسًا . فنظرت حولى ورفعت رأسى فإذا وجه يطل على من بين
القضبان . فبرقت فيه لأعرفه فلم يسعنى الضوء الضئيل . ثم
رأيتَه يفتح فمه الأهمس ويهمس ينادينى ، فصعدت بصرى فيه حتى
بلغت رأسه الأصلع وصحت فرحاً « طوطاط ! » فهز رأسه وهو
صامت ، وكان يحاول فى مشقة أن يلف ذراعه اليمنى حول القضبان
ليتعلق بها ، ثم رمى إلى حزمة بيده اليسرى وقال هامساً :
« كيف حالك ؟ تشجع ! »

فصحت به : « قل لى لم جىء بى إلى هنا . »

فقال متأثراً : « ألم أقل لك ؟ إنك لا تسمع النصح . كيف

تجرات على تزوير القدور ؟ »

وعند ذلك ثقل جسمه على ذراعه فاختل تماسكه ووثب إلى

الأرض بعد أن قال لى : « تصبر . »

فعدت إلى وحدتى حزينا أفكر فيما مضى بى من أيامى فى

جانبولاد . وأقبلت على نفسى ألومها على الخروج من الوطن ، ولاحت

لى ماهوش عند ذلك جنة نعيم . حقاً لقد خرجت منها جاثقاً

لأننى لم أجد لى بها مكاناً ، ولكنى كنت أتكلم فيها وكنت أضحك

وكنت أسخر ، وما كنت أرى فيها أحداً خيراً منى . بل لقد ذهبت

يوماً لأسطو عامداً على أموال الناس لآخذ حقى من أرزاق
 ماهوش غصباً ، وعدت أحمل ما أخذته عن رضا من الناس .
 أيها الوطن العزيز، كنت أجد فيك الحب فجحدت نعمتك، وهأنذا
 أذوق عقوبة الجحود . لقد كاد قاضى جانبولاد يحذنى فى جرم
 لم أرتكبه ، ولولا أننى لبست ملابسه لأصابنى العذاب والعار . ثم
 أغلق تيمور مدرستى مدعياً بأننى أذيع فيها الفساد وأتخذها مسرحاً
 للهو ، وهذا هو يلقى بى فى السجن لأننى زورت القدور . أى
 قدور هذه التى زورتها ! إن الطغاة لا تعوزهم الحجج إذا شاءوا
 التماسها . وياليتهم إذا أرادوا البطش اتجهوا إليه كما يتجه الضبع
 إلى فريسته مكشراً صريحاً لا يعرف مواربة ولا رياء . ليتهم
 يفعلون ذلك فيبلغوا العذر لأن هذا هو قانون الغابة ، ولا بأس فيه
 على القوى إذا سطا بالضعيف ، ولكنهم يابون إلا أن يتستروا
 وراء ما يقيمونه من القواعد ويسمون ذلك عدلاً .

ذكرت ما كان من حوادث الأيام الماضية، وأيقنت أن القدور
 كانت سبب بليتى . فإنتى ما كدت أضع العلم فوق بيتى حتى
 رأيت الناس يجتمعون حوله منذ الصباح ، وينظرون إليه
 متهامسين . فحسبت أنهم يعجبون بلونه ورشاقة خفقاته . ثم أتى

الليل فجاء إلى رجل من هؤلاء أصحاب الريش ، فأخذ يسألني عن علمي وعن قدرى ، وزعم أنه لا بد له من الاطلاع عليها حتى يختمها بنفسه . هكذا زعم وقال لى إن أعلام جانبولاد لا ترفع إلا إذا ختم القدر بيده وتحقق من أنها مملوءة . فذهبت معه إلى القدر فقبض ختامها ودمس يده فيها ، فصحت به حاتقاً . « ماذا تفعل ؟ » ولكنه كان قد سبق صيختى وأخرج يده من القدر مملوءة بالحصى . فنظر إلى ضاحكا وقال لى : « ما هذا ؟ » فلم أجد بداً من أن أشرح له الأمر كله ، وهو يهز رأسه حتى فرغت من قولى بعد أن أوضحت له كل ما قد يبهم عليه . فذهب عنى صامتاً بعد أن نظر نحوى نظرة عجيبة . فلم أعبأ بنظرته لما علمته من غرابة أطوار أصحاب الريش ، وعدت إلى غرفتى لأهين عشاى وما كدت أفعل حتى جاءنى جماعة من الشرط يأمروننى أن أسير معهم . ولم تجدننى فيهم مساءلة ولا مدافعة ، فقادونى إلى هذا السجن بغير أن يتكلموا كلمة واحدة .

ومرت بى الأيام بسجنى فى بطاء ، لا يقطع ظلامها إلا شعاع ضئيل من النجوم الوامضة الباردة ، التى لا تفتأ تحدث حديث الأجيال القانية . ولم يكن أحد يقطع على وحشة الوحدة إلا صورة

(نجوى) التي كانت تلازمني ، ثم صاحبي (طوطاط) إذ يتسلق الجدار من خارج ويتعلق بالقضبان حيناً ويهمس لي بكلمات قصيرة . وكان في كل مرة يرمي إلى ربطة فيها ما يتفق له من طعام أو ملبس ، وكان أحياناً يطرفني ببعض الفاكهة أو الحلوى فكانت الملمته القصيرة تبعث في قلبي أنساً يقيم فيه أياماً . جزاه الله من صاحب كريم .

وكانت آخر مرة جاء فيها طوطاط لزيارتي في ليلة من رمضان وكنت أستعد للصلاة قبل الإفطار ، فقذف إلى ربطته قائلاً :

— هي سنبودجة لسجورك . صنعتها بيدي .

فحقق قلبي عندما تذكرت طعامه الذي صنعه بيده على جانب الغابة ، فما كان أشبهه من طعام ! كان القمر يضيء الفضاء ، وكان هواء الربيع طلقاً لا يشبه في شيء هواء سجنى . وهممت بأن أشكره على بره وكرمه ولكنني قاطعني هامساً : « تشجع . إن تيمور قد ذكرك . »

فصحت به : « ذكرني ؟ وهل كان ذكره إيأي إلا شؤماً ؟ »
 فهمس قائلاً : « هذا شيء آخر . كنت عند ذلك طليقاً خراً » .
 فصحت : « ألا يكون شؤمه إلا على الأحرار ؟ »

فهمس في رعب : « صه ؟ أألجم ذلك اللسان . اسمع . نسيت أن أخبرك أن لك رسالة مع السنبوذجة . خطاب . أسمعتم ؟ »
ثم قهقهه وقال : « لقد صرت لك عامل بريد . »
فاضطرب جسمه في ضحكه وثقل على ذراعه فخلصها من بين
القضبان ووثب إلى الأرض .

فأسرعت إلى الربطة ففككتها وتلمست الرسالة من طياتها ،
ولكني تذكرت الظلام ، فالقيت بها جانقا وقضيت الليلة مفكراً
مهموماً لم أذق طعاماً ، وكانت همومي لاتفارقني إلا إذا قمت للصلاة .
كانت الأفكار تشرذبني دائماً إلى جانب الغابة فأذكر ما رأيت
فيها وما سمعت ، وتمثلت لى قوانين الإنسان في مجتمعاته أشد قسوة
من القانون الطليق الذي يسرى في الغابة . وبدا لي في ظلمة سجنى
أن قانون الأسود والفهود أقرب إلى الرحمة من تلك القيود التي
يضعها تيمور . فالأسد لا يقتل لأنه يحب القتل بل لأنه يريد أن
يشبع جوعه . وليس في قانون الغابة مثل هذه السجون المظلمة
التي يزيد عذابها على عذاب ساعة تعانيتها الفريسة قبل أن تنزلق
إلى بطن الوحش المفترس .

هكذا قضيت الليلة في تفكيرى الحائق حتى طلع الصباح ، وكنت

أترقب دخول الشعاع الضئيل من النور لكي أستطيع أن أقرأ الرسالة . فما كدت أتبين الحروف حتى أقبات عليها أقرؤها مع ما أصاب عيني من الألم في قراءتها على النور الضئيل . ولكني لا أذكر سروراً كان أعظم عندي في يوم من أيام حياتي مما أحسسته بعد أن مضيت في قراءتها . لقد تحرك المساكين الذين كنت أعلمهم وأواسيهم . تحركوا من أجلى وعزموا على النزوح من جانبولاد . هكذا أخبرني صديقي كمال الدين في رسالته ، جزاه الله خيراً . ولم ينس أن يبعث إلى في خطابه تحية من أخته الصالحة . كتبت نجوى إلى تحيتها تشد من عزيمة وتدعولي بالفرج القريب . إننى لم أزل منذ حلت في ذلك السجن أراها أمام عيني ، ولكن أفكارى السوداء كانت تجعل لصورتها إطاراً من الأحزان والآلام . أما صورتها التي ملأت قاي عندما قرأت تحيتها فقد كان إطارها من السلام والسعادة .

دب الأمل إلى قلبي وصار يرفه عنى أثر ضيق السجن وظلامه ، وما أكرم مساكين جانبولاد ! ليس لبلد أمل في الحياة إذا فقد مساكينه ، فهم الأيدي وهم الأرجل وهم القلوب والأحشاء . لا أقوام لأمة بدونهم ولن يستقيم أمر أمة إلا إذا ساوت بين رأسها وبين

سائر أعضائها فيما يجب لكل منها من الرعاية والحرمة والكرامة .
ولكن الطغيان أعمى ، ولا سبيل إلى فتح عينيه إلا بأن يظهره
المساكين على أنه لا حياة له من غيرهم . يستطيع المساكين أن
يعيشوا في الأرض الفسيحة ، فان عندهم الأيدي والأرجل تعمل
وتسعى ، وهم يجدون وطنًا حيث يحلون لأنهم في كل وطن يخدمون .
ولن يضرهم أن تزول الحدود بين الأمم وأن تكون بلاد الله
كلها للإنسان .

لم أشك في أن تيمور قد فزع واضطرب من هؤلاء المساكين
الذين أرادوا الخروج من جانب بلاد . أيها الأشقياء لو اطلعتم على
ماني قلوب الطغاة وهم يدوسونكم بأقدامهم لسرتم تطلعون ما عليه .
إنهم يخشونكم وأتم صرعى ويعرفون ضعفهم وقوتكم .
ولقد صدق ظني فيما ذهب إليه ، فما أتى عصر ذلك اليوم حتى
سمعت السجان يعالج فتح باب جحرى ثم سمعت صراخ المصراعين
وهما ينفرجان ، ثم رأيت ذنب السيد النبي المنحنى وهو داخل من
الباب المطاطيء . كان الذنب يضرب فوق قلنسوة حريرية
صفراء عند ما فتح الباب . ولما دخل الذنب دخل وراءه السيد .
وكان مثل البيغاء كسائر أصحابه ، حتى كدت أقبه من رؤيته ،

ولكنى أمسكت نفسي ونظرت اليه صامتاً .

فنظر إلى مبتسماً وقال بعد أن حيا : « أنت رجل طيب . هكذا يقول الناس عنك . وليس السجن بالمقام اللائق بك . » ثم نظر حوله مشمئزاً .

فقلت له : « لا شك فيما تقول أيها السيد . إننى أحب السير فى ضوء الشمس والتنفس من الهواء الطلق ، وأحب أن أذهب حيث شئت وأتكلم مع من أحببت وأقول ما يدور فى نفسى إذا أردت . أحب كل ذلك وأحس تلك الجدران التى أقيم بينها تكاد تنطبق على وتزهق أنفاسى بركود هوائها وظلمتها . »

فهز رأسه موافقاً وقال : « وإذا فأنت ترى مصلحتك فى التخلص منها . »

فصحت : « مصلحتى ! إنما هو حقى . »

فقال الرجل متراجفاً : « حقك ! ليس من حقك أن تسير الأمور حسب أهوائك . »

فقلت فى حقق : « بل أقول إنه حقى ، وليس لأحد أن يسلبنى إياه . » فاحمر وجهه ونظر إلى نظرة بشعة وقال : « أهذا ما تعلمته فى سجنك ؟ »

فقلت مبتسما: « نعم تعلمت من السجن أشياء كثيرة » .
 فقال ساخرًا: « تعلمت مثلاً أن توجه أفاضاً جافية إلى من

جاء يحسن إليك » .

فأخذ الغضب مني مأخذه وصحت به: « تحسن إلى اإنني
 لا أقبل منك إحساناً. إن من حقي أن أكون حرًا . ولو كنت
 مجرمًا لما كان هذا السجن عقاباً جديراً بانسانيتي . اقطع يد
 السارق واتركه حرًا ، واقتل القاتل ودع روحه حرة . إن الحرية
 أثمن من اليد ومن الجسد كله » .

فنظر إلى صامتا والدهشة تعقل لسانه ، ثم حاول أن يهدىء
 نفسه وقال: « دعنا من هذا القول الحائق . كن هادئًا وافهم فيم
 أتيت إليك » .

فقلت له هادئًا: « هأنذا ترانى هادئًا . ولكنى أنطق بالحق
 قد علمنى السجن ألا أمانع نفسى من قول كلمة أراها حقًا
 كنت أحياناً أتردد فى قولها من خوف هذا السجن ، فلما دخلته
 وتحملت ضيقه وجدت أن كل ما فيه من عذاب وألم أقل قسوة
 من الشقاء الذى يسببه الامتناع من قول الحق » .

فقال الرجل متكففا العطف : « لسنا نخشى الحق . قل ماشئت من الحق الصحيح » .

فضحكت مقهقهاً ، وكانت تلك فلتة لمت نفسى عليها ، ولكنى لم أقدر على الامتناع منها ، ثم قلت : « هناك إذا حق صحيح وآخر غير صحيح ؟ إنما أعرف الحق واحداً . فإذا لم يكنه كان باطلاً » .
 .. فتحرك الرجل فى قلق ولكنه تكلف الهدوء وقال باسمًا :
 « قله إذا . قل الحق » .

فقلت مسرعاً : « لقد قلت ما ثار فى نفسى وهذا حسبي الآن » .

فقال فى عطف متكلف : « أنت مخطىء فى تقديرك كله . لست من هؤلاء الأغرار الذين يليق بهم أن يخطئوا وأن يعاقبوا . فأنت رجل عالم . لست من السوقه الرعاع » .
 فقلت مندفعاً : « السوقه الرعاع ؟ من هؤلاء ؟ لا أعرف سوقه ولا رعاعاً إلا هؤلاء الذين يملأون الأرض فساداً . وأما رجل الحقل الذى يلوث يديه بالطين ويسير عارى القدمين ممزق الثياب ، ويذهب آخر اليوم إلى أهله بجزمة من الفجل ورغيفين — أما هذا فرجل وهب نفسه للعمل ووهب ماله إلى الآخرين .

فاذا كان من السوقه الرعاع فما أحب إلى أن أكون منهم .
فقال السيد متأففاً : « أوه ! أقصد أنك رجل عاقل
لا ترضى بالفوضى » .

فقلت : « لست أرضى الفوضى لبلد من بلاد الله » .
فقال مرتاحاً : « إذا قد اتفقنا . وأنا آت إليك موفداً من
مولاي تيمور العظيم ، إنه يمد يده إليك » .
فصحت في دهشة : « أنا ؟ يمد يده إلى أنا ؟ أنا هنا أسير ويد
الأسير مغلوله » .

فقال معاتباً : « أنت تتجنى . هذا كرم لا ترفضه » .
فقلت وأنا أغص بريقى : « كرم ؟ ما الذى حمله على القذف بي
إلى هنا ؟ أليس هذا بغياً ؟ وهل إزالة البغى تكرم ؟ »
فصاح فى حنق : « أنت تصدنى وتمعن فى جرح كرامتى ،
وتستهين باسم مولاي » .

فقلت له هادئاً : « لست أفهم » .
فتحرك ضجراً وقال : « إذا أنت ترفض السلام » .
فقلت : « الذى يريد السلام لا يستشير فيه » .
فصاح وقد نفذ صبره : « هذا تعنت . هذا عناد » .

قللت وقلبي يدمى : «أنا هنا في سجنى كأننى لست شيئاً .
لقد سلبتم حتى فى الحياة حرّاً وأنتم أصحاب الحول والقوة . ردوا
على " حرىتى فهذا حتى » .

فقال وقد ثار : « لقد علمت أنك لا تجيب إلى السلام ،
فلتتحمل العقبي » . فلم أتمالك أن قهقهت مرة أخرى وقلت :
« تهددنى ؟ وماذا يأخذ الريح من البلاط ؟ »

فجعل الرجل يشتم ويهدر بألفاظ لم أفهم معناها ، وكان
منظره مسلياً ، فوقفت أنظر إليه حتى سكن ، ثم قلت له : « إذا
كانت الحقيقة تغضبك فما ذلك من ذنبى . »

فأخذ يردد ويبرق وقبض يده فرفعها نحوى صائحاً : « اخرس ! »
فنظرت إليه هادئاً ولا أزال أضحك وقلت : « أهكذا
تخشى لسانى ؟ » .

فدفعتى دفعة غيظ كدت أقع منها ، ولكنى لم أشأ أن يخرج
بغير أن أسمع آخر كلماتى فقلت :

— ستقف معى أنت وسيدك وجهها لوجه أمام الأبد .
ستقفان وجهها لوجه أمامى والغار يقطر من وجهيكما ، وتتردد أصداء
هذا الحديث جيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة ؛ وستشهد الأجيال

قوتى وضعفكم وثباتى وهروبكم وحقى وظلمكم . وليس فوق الظلم ما يمكن أن يسب به صاحب السلطان .

فصاح الرجل صياحاً عالياً لم أفهم منه لفظاً ، وخرج يخبط الأرض فى عنف ، ثم تضاءلت أصداء خطواته فى السرايب بعد حين وعاد السكون العميق . ثم أتى السجنان إلى حجرتى فأعاد المصراعين إلى إغلاقهما ، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله ، واختفى الشماع الضئيل من الضوء ، وأقبل على الظلام الكثيف يلف ما حولى ، ولكن قلبى كان يشتعل ويضىء . وقت أصلى لله شكراً فقد نصرنى فى سجنى على تيمور فى جبروته .

١٠

لم أنم من الليل شيئاً بعد أن انصرف عنى الرجل صاحب الذنب ، ولكنى كنت مطمئن القلب مبتهجاً . فلما مضى الليل وأطلت على بوادر أشعة النهار الضئيلة من وراء قضبان سجنى ، سمعت صرير المفتاح فى باب حجرتى ، ثم رأيت الباب يفتح ودخل منه السجنان حاملاً فى يده صرة . فتبسم فى وجهى أول بسمه منذ رأيتة ، ثم ألقى إلى الصرة وقال : « هذه خلعة مولاي » . فنظرت

إليه ولم أفهم ما يقصد من قوله، فأعاد كلماته وهو يزيد في ابتسامته اتساعاً وقال متلطفاً: «خلعة مولاى تيمور العظيم، لكى تلبسها ثم تعضى إليه مع الأمير صاحب الذنب الذى ينتظر ك عند الباب». فدار بى رأسى وحسبت أننى فى رؤيا، وتحركت فى موضعى ولمست بلاط الحجر، بيدي فوجدته بارداً قاسياً كعهدى به، ثم قمت ومشيت وتكلمت لأنا كد من أننى لست نائماً. ثم خررت لله ساجداً. ولم أنظر إلى الصرة وتركتها ملقاة على الأرض، وخرجت أتلمس الطريق والسجان يرشدنى كلما أخطأته، أو كدت أصطدم بجدار، حتى بلغت الباب، فرأيت صاحب الذنب الذى كان عندى بالأمس واقفاً هناك مقطب الوجه، فلم أنظر إليه وخرجت إلى الطريق بعد أن مكثت فى سجنى شهرين وعشرة أيام وساعتين. وهبت على نسائم الصباح الباردة، تلك النسائم الرطبة التى تحمل عطر الفضاء الفسيح ولا تلوثها جدران السجون. ووقفت حيناً أملاً صدرى منها وأنظر إلى السماء الصافية اللامعة، وأنوار الصباح الرفيعة الباسمة، وامتلات عيناى بالدمع. ثم سرت وقلبي يهتف بالشكر لله الذى له الأمر كله، والذى يلفظ فى الخطب الجسم وينعم بما لا يحصى من الآلاء.

وسمعت الأمير صاحب الذنب بعد حين يناديني من ورأى
« إلى أين ؟ . » . فلم ألتفت إليه لأنني كنت منصرفاً إلى تسبيح
قلبي ، فأسرع حتى صار إلى جانبي وأمسك بذراعي وقال معبساً :
« أما تعرف أن تيمور ينتظر ؟ » . فرفعت بصري إليه وكان رجلاً
طوالاً ، وقلت له مترقفاً : « أما تعفيني ؟ » فقال وهو يقلل من عبوسه :
« وهل هو أمرى حتى أعفئك ؟ إنه أمر مولاي » . فتنهت إلى
نفسى وزالت دهشتي فتمثلت لي حقيقة الحال وعلمت أنني
مطلوب إلى مجلس تيمور . وماذا كان تيمور يبغى مني ؟ فتلطفت
في القول وخطبت الرجل خطاباً ليناً فقلت له : « إذا تكلمت
عليّ بساعة أذهب فيها إلى داري لأصلي سألت الله لك العافية » .
وما قلت ذلك حتى سمعت صوتاً يصرخ من ورأى يناديني باسمي ،
فالتفت فإذا السجان يشتد مسرعاً نحوي وهو يحمل صرة في يده .
فوقفت حتى صار إلى جانبي ومد يده بالصرة قائلاً وهو يلهث :
« أتريد أن تذهب إلى البادشاه بهذه الملابس ؟ » . فنظرت إلى
ملابسي التي كانت من قبل ملابس السيد القاضي فرأيتها في الحق
زرية لا تليق إلا أن تلبس في السجون . فأخذت الصرة من
السجان وشكرته على ما تكلف من المشقة . ثم نظرت إلى الأمير

الذى إلى جانبي فوجدته ينظر إلىّ باسمًا، فاستبشرت وتبسمت إليه مستعطفًا فقال : « لا بأس عليك أن تذهب إلى دارك ساعة ثم أحضر إليك لأسير بك إلى مولاي . فانه يريد أن يراك في ساعة الغداء » . وكان هذا القول مدهشًا في الحقيقة ، ولكنى لم أتف لأندهش بل أسرعت فاصدأ إلى دار صديقي كمال الدين ، فما كان أشوقنى إليه ! وما كان أشوقنى إلى طلعة أخته الصالحة المباركة نجوى ! ما كان أشد شوقى إليها ! فلما بلغت الدار طرقت الباب ووقفت أنتظر متلهفًا ، فإبطأ على الجواب حينًا ، ثم سمعت صوتًا يسأل : « من هذا ؟ » وكان صوتًا حبيبًا . فقلت بصوت متهدج « أنا جحا . »

فسمعت صيحة مكتومة ثم فتح الباب وظهرت (نجوى) من ورائه تنظر باسمه بعينيها الواسعتين وقالت فى حماسة يغالبها الحياء : « مرحباً بك ! » ولحت تحت جفنيها ماء يتفرق .

ثم احمر وجهها ، فأصبح مثل لون الوردة فى الصباح إذا بلها الندى ، فأسرعت أنفاسى ودق قلبى ومددت يدي أصابعها ، وغالبت نفسى التى كانت تدفعنى إلى ضمها إلى صدرى . ويعلم الله أن ذلك لم يكن من شوق هذه الأرض ، بل كان رحمة ورقة

في صفاء نور السماء . وقلت كلاماً وقالت كلاماً لا أذكر منهما شيئاً ،
 إذ كنت أنطق بما لا أعى ، وأعى ما لا أنطق به . ولما هدأت
 سألتها عن أخيها ، فقالت إنه خرج في الصباح الباكر ، ودعتني إلى
 الدخول . ولكنني اعتذرت وشكرتها وامتنأذتها في الذهاب وأنا
 أنازع نفسي نزاعاً شديداً ، فألحت عليّ في الدخول لأستريح ،
 وألحّت معها خلجات قلبي ، ولكنني حرّكت نفسي قسراً ومضيت
 في سبيلي ولم ألتفت إلى ورائي خوف أن تحملني رجلاي جرياً
 إلى الباب الذي لم يغلق بعد ذهابي .

سرت في طرق جانبولاد . وكان بصري كلما وقع على شيء من
 بيوتها أو عطفة من عطفاتها رأيتها باهر الحسن ، كأنني لم أنظر إليه
 قط . وخيل إلىّ أنني أسير في مسارب جنان خلع عليها ضوء
 الصباح ألواناً فاتنة . وما زلت أهيّم حتى بلغت قريباً من
 داري ، فقلت أذهب إليها لألبس خلعة تيمور ، وجررت نفسي
 جرّاً لأنني كرهت جدران البيوت من أجل جدران سجنى .
 ولكنني ألحّت عند باب بيتي شيئاً يشبه أن يكون جمعاً . فترددت
 وداخلى الوهم من أن يكون تيمور قد بداله رأى فبعث بعض
 جنده من ورائي ليعودوا بي إلى حيث كنت ، وخطر لي أن أطلق

ساقى للريح وأنجو من المدينة، ولكنى آثرت أن أتأكد، فتقدمت في حذر أتدارى في ظل البيوت. فلما قربت من الجمع لم ألمح فيه خيلا ولا ريشا، بل لاحت لى عمائم بيضاء وقفاطين فضفاضة. فاطمأنتت وذهبت نحو الجمع ثابتا، حتى بلغت أوله وملت أسأل أقرب الواقفين عن سر الزحام. فنظر إلىّ وما كاد يتبين وجهي حتى صاح صيحة فرح: «خواجه نصر الدين! جحا!» وإذا بالسيل الجارف يردد الصيحة، ويتدافع نحوى في ضجيج وعجيج حتى أحاط بى، وجعل كل من استطاع منهم أن يصل إلى يدي يقبلها، وكل من يصل إلى ثيابي يمسح عليها كفه، ومال بعضهم نحو قدمي يلمسونها، حتى كدت أتزعزع وأسقط لولا أن الزحام لم يترك لى فسحة من فراغ أتزعزع به أو أسقط فيه. وبعد لآى انشق الزحام عن رجل يجاهد فى الوصول إلى، حتى صار عندي وأخذنى بين ذراعيه، وجعل يقبل كتفى وعنقى. وصحت عندما رأيت وجهه: «صديقى!» فقال لى كمال الدين: «لم ندركك فى السجن ولم نجدك فى المسجد فجئنا إلى هنا». فقلت له: «لقد عرجت على بيتك...» وقبل أن أتم كلامى علت صيحة من الجمع الزاخر: «إلى المسجد!» ثم وجدت نفسى أتحرك

كما يتحرك العود على التيار القوى . ولما بلغنا المسجد صلينا ركعتين ثم جلست عند العمود الذي كنت من قبل أجلس عنده . وما كان أشوقني إلى أن أعاود لذة أحاديثي ! وفتح الله على بما شاء ! ولا أدري كيف تحدثت فقد كان الجنان يملئ واللسان يهدر والقلب يجيش مليئاً . وما زلت في درسي لأ أحس للوقت مرا حتى أذن للصلاة ، فقمنا للجماعة والمسجد يضيق بمن فيه . ثم أردت الانصراف ، فأخذت صرة تيمور تحت إبطي وقت أسير في مشقة بين الجموع حتى بلغت الباب وهمت بالخروج فإذا بي أرى الأمير صاحب الذنب يقبل على مترقفاً باسماً ويسألني أن أذهب إلى مولاه .

قلت له : « أنا متعب وبي حاجة إلى الإغفاء » .

قال باسماً : « إن مولاي ينتظرك على الغداء » .

فكدت أنصرف عنه بغير جواب لولا أن غمزني كمال الدين في ذراعي ، ففهمت قصده وسرت إلى جانب الأمير وسار كمال الدين عن يساري ، وأبي الناس إلا أن يشيعوني حتى أبلغ القصر . فساروا في موكبهم الصاحب يجهرون ذكر الله حتى بلغنا الساحة الفسيحة .

وأشار إلى الرسول أن ادخل . فنظرت إلى كمال الدين ثم نظرت إلى الأمير وقلت له : « أما يدخل معي صديقي » ؟ فقال الأمير وهو يحنى ذنبه : « كما تشاء وتقدم راشداً . » فنظرت إلى الأمير وإلى الصرة التي في يدي وقلت : ولكني لم ألبس خلعة الپادشاه .

فقال وهو يكتم ضجره : « لا بأس عليك فادخل في ثيابك » . فلم أجد بداً من الطاعة ، وأعطيته الصرة قائلاً : « احفظ لي هذه معك » . فمد يده كارهاً وأخذ الصرة وقال لي في شيء من العنف : « هلم إذا » . فأخذت بيد كمال الدين ثم نظرت إلى الجمع فسلمت عليهم ، ودعوت لهم بالخير ، وانطلقت في سبيلي إلى ما بين عمد القصر . وكانت دعوات الناس تشق الفضاء وتلاحقني ، حتى دخلت . وشعرت برهبة عندما رأيت مطالع الأبهاء ، وفكرت فيما أنا صانع في حضرة العطاء ، فما تعودت أن أجالسهم ، وما كنت لأعرف كيف أحدثهم أو أؤاكلهم ، ولم أجد من يرشدني غير صديقي كمال الدين . فهمست في أذنه : « كن إلى جانبي فإذا رأيت مني خطأ فاجذب جبتي . » فhez رأسه منعماً ، وسرنا حتى دخلنا البهو . وكان فيه خوان فسيح لا يدرك البصر مداه ،

ولا تحصر العين ما علاه : ألوان من زهر ، وصحاف من فضة
 وذهب ، وأكواب من البلور ، وفوط من الكتان الناصع ،
 وطنافس من الصوف الوثير ، وزينة أخرى لم أر مثلها ولا أعرف
 أسماءها ، وكراسي كأنها رصعت بلؤلؤ ، عليها رجال كالتماثيل ،
 يلعب فوقهم الحرير ويفوح من لحام العبير ، وقد توسط تيمور
 الصدر في عمامة ذات زخرف وجوهر ، وثياب وهاجة وحلى
 متلألئة براقه ، وكان ينظر نحوى بعينه وجرحه ، من تحت جبهة
 نائثة ، وحاجبين مائلين صعدا . وكانت لحيته سوداء خفيفة ،
 وفه أشدق يكاد اللعاب يسيل من جانبه ، فوقفت أنظر
 إليه حيناً وأعجب من قدرة الله الذى جعل هذا سيداً للناس .
 وجذبني كمال الدين من جبتي ، فالتفت إليه فوجدته يومئذ إلى أن
 أسير لأجلس حيث كان تيمور يشير . فذهبت إلى الكرسي الذى
 أشار إليه فى جواره وجذبت كرسيًا آخر وأشرت إلى كمال الدين
 أن يجلس عليه . ولم أدر ما الذى حمل صاحبي على أن يجذب
 جبتي عند ذلك ، ولكنه جلس عند ما أشار إليه تيمور . وقد
 كنت أتمثل تيمور كبعض النمر أو الفهود ، له أنياب ومخالب
 وزئير وزمجرة ، ولكنى لم أجده فى الحق إلا رجلاً أو نصف

رجل ، فلم ألبث أن حلت عقدة وجهي ، وفككت حبسة لساني ، ووجدت نفسي أكله كما أكلتم الناس ، بل لقد جعل يؤنسنى بقوله ويغمرني بعطفه ، ووجدته يضحك أحياناً ، ويدرك من المعاني ألوأنا . ولست أنكر أنني لم ألبث أن نسيت حنقي عليه وسوء ظني به ، وأقبلت عليه طيب النفس منشرحاً . وتلطف بي فكان يمد يده إلى بقطع مختارة من طرف الطعام ، وكنت في الحق جائعاً ، فوجدت في الأكل لذة لم أعهد لها ولم أعرفها . وكان حيااله طبق فيه فاكهة تأخذ العين بجمال منظرها ، ولست أعرف عملها كانت من بعض ما حمل إليه من أطراف الصين ، أو من غوطة دمشق ، فمد يده إلى بواحدة كانت لها رائحة لا يشبهها ريح المسك والعنبر ، ولا يدانيها لون الورود . فرفعتها لأمتع نفسي من شميمةا ، ثم قضمت منها قضة كأنها الشهد في مذاقها ، وكدت أقضم منها أخرى لولا أن جذبني كمال الدين من جبتي ، فأمسكت على مضض ونظرت نحوه بمؤخر عيني فهمس لي قائلاً : « هدية الملوك لا تؤكل . . »

فعبجت من قوله لأن الله إنما خلق هذه الفواكه اللذيذة لنا كلها ونشكره على جزيل نعمه ، ولكنني لم أجد حيلة في نصيحة.

صاحبى ، فهو أعلم بما كان ينبغى لى أن أفعل فى مجالس الملوك .
فوضعت الفاكهة فى حجرى وانصرفت إلى بقية طعامى ، وشعرت
بارتباك كاد يفسد على غداى . ولكن تيمور مد يده إلى ورك
ديك سمين فقدمها إلى وهو باسم ، فأخذتها من يده وشكرته فى
أدب مقلداً حركة من حولى فى تحاياهم ، ثم أمسكت الورك بيمينى
فى سكون ، ولم أستطع أن أمد يدى إلى شىء آخر . فجذبني
كمال الدين من جتى فالتفت إليه مستهتماً ، ولكنى قبل أن أسمع
همسته سمعت تيمور يسألنى : « لم لا تأكل ما أعطيتك ؟ »
فالتفت إليه فى أدب وقلت معتذراً : « أيها الپادشاه ما كانت
هدايا الملوك لتؤكل . وهذا صديقى يجذبني من جبتى » .

فضحك تيمور حتى بدت نواجذه ، ومال على ظهره حتى
اهتزت لحيته ، وأغمضت عينه . وسمعت كمال الدين يهمس :
« هذه ورك تؤكل » فرفعت بهايدي فأكلتها وأنا فى حيرة شديدة
لا أعرف ماذا يطلع به صاحبى على مع كل لقمة . ولكن تيمور
تبسط فى محادثتى ، واشترك من حول المائدة فى التلطف بى ، حتى
سُرّى عنى وتركت النظر إلى مشورة صديقى ، وأقبلت على المائدة
آكل كما يريد الله للناس أن يأكلوا حتى امتلأت ، وأمتعت

نفسى بكل الطيبات . وقضيت عند تيمور بعد الغداء ساعات فى شجون الحديث، كأننى لم أكن فى صباح ذلك اليوم ملقى فى سجنه .
أيتها الأقدار العجيبة !

وكان الشعراء عند الباب ينتظرون الدخول . فلما صلينا العصر أذن لهم تيمور بالدخول وجلس فى البهو الأعظم وجلس الأمراء والأعيان من حوله فى وقار وقد وضعوا أيديهم على الصدور ، وأمالوا رؤوسهم على النحور، حتى مست لحام أحزمتهم الحريرية أو الذهبية . وأقبل الشعراء واحداً بعد واحد ، وجعلوا يتغنون بالسيد الأعظم ويصفون جمال هيئته وشدة هيئته ، وسيفه ورمحه ، وقوة ساعده ورقة قلبه ، وكان منظرهم فى الجق مسلياً ، إذ كانوا يتمايلون ويهتزون ، وينظر كل منهم بمؤخر عينيه إلى الناس ليرى أثر قوله على الوجوه . مساكين هؤلاء ! جعلت كلما سمعت من أحدهم معنى تأملته لأرى صدقه ، فإذا سمعت وصف جمال تيمور نظرت إلى وجهه ، وإذا سمعت وصف قوته صوبت بصرى فى جسمه وصعدته ، وإذا سمعت وصف سيفه ورمحه التفت إليه لأرى هل معه من ذلك آلة حتى فرغ الشعر ، وهز تيمور رأسه مرتاحاً ، وأذن للشعراء أن ينصرفوا . ثم أشار إلى رجل قائم عند

رأسه، فأنصرف وراءهم، ولا أدري بهم أمره، وأغلب ظني أنه لم يأمر بعقاب أحدهم على كذبه، فقد قالوا إن أعذب الشعر أ كذبه .
ولأمثال تيمور حرص على مثل هذه الأقوال المنمقة ، والصور
المختزعة، فهي تستقر في العقول فلا يززعزعها من بعد شيء ، ومثل
هذه الأقوال قد زيفت على الناس معنى العظمة ، وأفسدت
معنى الكرم والعدالة ، وجعلت من العقلاء الأبرار عبيداً في
الأغلال . وليست هذه أول مرة رأيت فيها أثر الألفاظ في
الناس ، فقديمًا كان الإنسان أسير الألفاظ .

ومهما يكن من الأمر فقد جلست أتأمل ما كان، وأوازن بين
الحاسن وأضدادها، ثم تنبهت بعد حين إلى جذبة في جيتي، فالتفت
فإذا كمال الدين يغمزني بعينه مشيراً نحو تيمور ، فالتفت إليه
فوجدته يبسم ويقول : « لقد أبعدتك عنا تأملاتك أيها
الشيخ الجليل » .

ولحيت في مظهره ورنين صوته شيئاً كثيراً من العطف حتى
رقت له ولت نفسي على سابق ظلمي إياه ، وعراني ارتباك
فلم أستطع جواباً .

فقال لي متلطفًا: « كنانة تحدث في أمر نحب أن نسمع فيه رأيك » .

فقلت وقد سرّني عنى : « فيم كان الحديث ؟ »

فقال : « كنا نتمنى لو استطاع الإنسان أن يعرف حقيقة

قدره في أعين الناس . »

فقلت مبادراً : « هذا شيء يسير . لقد عرفت قدرى في أعين

الناس دائماً . »

فقال باسمياً : « ولكنى جربت ذلك فلم أجده كما وجدته . »

فقلت له : « لعل الناس يخشونك . أمّتهم خوفك تعرف

ما تشاء أن تعرفه . »

فضحك وقال في لهجة التحدى : « أتقدر أن تخبرنى كم

أساوى من المال ؟ »

فقلت ناظراً إلى من حولى فى ارتباك : « أظن أن هؤلاء

السادة أقدر منى على جواب مثل هذا السؤال . »

فقال ضاحكاً : « لم أجده عندهم ما يشفينى . قل ولا تخش

شيئاً . فنظرت إليه متردداً ، ثم تجرأت وجعلت أخصه

ببصرى وقلت :

— لا أظنك تساوى أقل من ألف دينار .

فضحك حتى استلقى على ظهره وضحك من معه وراءه، ثم قال :

— إنك لم تبلغ في جوابك شيئاً . إن ملابسي وحدها
تساوى ذلك المقدار من الدنانير .

فقلت وقد امتلأت سروراً من صدق حدسي : « لقد صدق
ظني إذاً . فما كنت أنظر في تقدير ثمنك إلا إلى هذه الملابس » .
فعاد إلى الضحك حتى كاد نفسه ينقطع ، وضحك أصحابه
مثله حتى لم يبق في المجلس أحد لا يضحك غيري أنا وكال الدين .
ونحن ننظر إليهم ونتعجب مما يضحكهم .

وبعد حين هدأ تيمور وظهر عليه النشاط وانشرح صدره ،
ثم نظر إلى جاداً وقال : « أيها الشيخ المبارك ، إننا نحب أن
نسمع وعظاك » . فوقعت كلمته عليّ وقمّاً ثقيلاً ، وزادت حيرتي
عند ما نظرت حولى ، ورأيت من كان هناك من حراس وأتباع
ومن لحى شهباء وعمائم مكورة بيضاء . فماذا كان لي أن أقول
بين هؤلاء ؟ وما خرجت من سجنى لكي أعظ تيمور ،
ولعل تلك العظة تعيدني إلى ما كنت فيه من ظلام جحري .
وترددت طويلاً وأطرقت حائرأً وكدت أنطق معتذراً ، ولكنني
لم أجد لنفسى عذراً . وسمعت تيمور يقول لي : « لقد سمعت
عن ورعك وعلمك فأحببت أن أراك وأن أسمعك ، فلا تحرمنا

من بركة مواعظك» . فشعرت كأن روحاً جديداً يسرى في أعماق قلبي ، ونسيت إشفاقى وخوفى ، وقتت كأننى أنشط من عقال . فأحسست جذبة فى طرف جبتى ، ولكنى لم أبال صاحبى ، وانطلقت أتكلم ، فقلت ناظراً إلى تيمور : « لا تصدق حرفاً واحداً مما يقوله هؤلاء الذين يمدحونك ، فإنهم إنما يبيعون لك سلعة يعرفون أنك تحبها » .

وما نطقت بهذه الكلمات حتى رأيت الجمع ينتفض كأن ناراً لذعتهم ، ورأيت لحامهم تنفق ، ونظروا إلى ثم نظروا إلى تيمور ليروا ما هو صانع بى . ولكنى لم أنظر إلى أحد وقلت مستمراً : « وإذا أردت أن تسمع عظة فلا شيء يعظك خير من الحقيقة ، فتأمل وفكر والتمسها . لقد خلقك الله كما خلق من قبلك وكما هو خالق من بعدك ، وجعل لك أياماً على هذه الأرض لن تعيش أكثر منها . ولقد كنت قبل أن تخلق نسياً منسياً ، وستمضى بعد حين وتذهب عن هذه الأرض لا تأخذ منها شيئاً ، فلا تجعل هذه الأيام القصيرة تغطى على الحقيقة الخالدة ، ولا تجعل هؤلاء الذين يمدحونك يسخرون من حكمتك . قد خلقك الله كما خلق هؤلاء الناس جميعاً ، وجعل لكم الحياة ميداناً وامتحاناً لكي تؤدوا

الواجب الذي ألقاه جل وعلا على الإنسانية عند ما خلقها منذ قال :
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ». وما عبادته إلا السعي
إلى الكمال الذي قدره للخلق ، وجعله قصد حياتهم . كان من
قبلك ملوك بلغوا من السلطان ما بلغت ، ثم أضلتهم الحياة فمضوا
عنها وصاروا نسياً منسياً . فهم اليوم صور وأسماء مجردة معطلة
من كل مجد وهيبة ، لا فرق فيها بين فرعون وبين العبد الذي
كان يسجد عند قدميه . فالملوك الذين لم يخفوا إلا آثار
العسف والطغيان لم يكونوا أهلاً للإنسانية بل كانت حياتهم
على الأرض لعنة لأنهم جحدوا نعمة الله الذي وهب لهم الحياة .
كان المجد عند الطغاة أن يذلوا الأعداء ، وأن يسفكوا الدماء ، وأن
يجعلوا أهل الأرض عبيداً ليملقوا كبرياءهم وغرورهم . فلما مرت
أيامهم ذهبوا بعد أن دمغهم اليقين ، فعلموا ولات حين علم أن
كل ما اضطربوا فيه لم يكن سوى غرور من الغرور ، وليس فيه
شيء سوى الغرور . وبقيت الأرض بعدهم باسمه كأنها تسخر
من جهالتهم العمياء .

لقد مرت يوماً بغابة ، ورأيت فيها تنازع الحيوان والحشر ،
وهناك استطعت أن أدرك الرسالة السامية التي أعدها الله

للإنسان ، أن يعيش على قانون الرحمة والحب لا على القانون
الطليق الذي يحكم الغابة . ولكني كلما تأملت بدا لي أن من
بني الإنسان من يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن يمسخوا
الرسالة السامية ويعودوا إلى قانون الغابة طمعاً فيما يصيبونه من
وراء ذلك من مجد حيواني وحشى . وهؤلاء ليسوا سوى نكسة
من نكسات الحياة ، وفلتة من فلتات أقدام الإنسانية في صعودها
نحو الملا . الأرض لا تضيق بالناس جميعاً إذا أرادوا أن
يعيشوا فيها لما أراد الله لهم ، بل هي تتسع للجميع وتفتح ذراعها
للجميع ، وتدعو الجميع إلى الحياة السعيدة . فهنيئاً لمن استطاع
أن يكون من رسل الرحمة ، ومن أكبر الإنسانية وأعظمها ،
فلم يسفك دماءها ولم يدنس كرامتها ، وسعى في تحقيق الخير ،
وأعان على تحقيق السعادة للجميع . »

ولما انتهيت إلى آخر قولي تنفست نفساً عميقاً وشعرت بأن حملاً
أزيج عن كاهلي ، ونظرت حولي حتى وقعت عيني على تيمور .
وما كان أشد عجبى إذ رأيت يبيكي . نعم كان يبكي وهو مطرق
والدموع تنحدر على لحيته . وكان الجمع كله مطرقاً يشارك في
البكاء ، إلا صديقي كمال الدين فقد كان ينظر إلى مأخوذاً وصدره

يعلو ويهبط في اضطراب . فلما رأني قد أمسكت قام نحوى ولم
يعبأ بأحد ، حتى صار أمامي وضممني إلى صدره ، قائلاً في صوت
متهدج : « لقد عرفت أنك لن تخشى في الحق أحداً . وأحمد الله
إذ لم تطعني عند ما جذبتك من جبتك » .

ولما عزمتم على الخروج بعد ذلك صاحفني تيمور متأثراً ، وأمر
لي بخلعة أخرى ، فذهبت إلى داري عند الغروب بخلعتين كريمتين
من الپادشاه كأنني لم أكن عند شروق الشمس ملقي في سجنه .
فسبحانك يا الله !

١١

وجدت في اليوم السابع بعد خروجي من السجن حركة في
جانبولاد ، وكنت ذاهباً إلى المسجد الذي جعلني تيمور إماماً له ،
فسمعت ضجة عظيمة حسبت أنها هيفة حرب أو حدث من
الأحداث . كان الناس يتواثبون ويتسابقون في هياج ويقولون
« خرج تيمور »

خرج تيمور بكل جيشه وكل أمرائه عائداً إلى سمرقند ، فلم يبق
من جيشه أحد في جانبولاد ، وخرج معه كثير من أصحاب

الأعلام وحلوا قدورهم معهم ، لأنهم لا يقدرّون على مفارقتها
أو الحياة من غيرها ، فهي عندهم أعز من الولد وأحب من الوطن .
وخرجت مسرعا لأنظر إلى الموكب الضخم ، ولم أستطع
مغالبة نفسي في نزوتها . فرأيت تيمور وهو خارج ، وسامت عليه
ولا أنكر أنتى أحسست في قلبي عطفاً عليه . مسكين هو
ما كان أفقره إلى السلام ! ورأيت السيد القاضى صاحب السيف
يسير وراهه في مؤخرة الجيش على بغلة حمراء ، وكانت قدوره
الحمسون محملة على قافلة من الإبل تسير في آثاره . وكنت قريباً
منه على جانب الطريق فوقعت عيني عليه وتبسمت له وأحسست
له رقة . مسكين هو كذلك . فقد كان الحزن بادياً عليه ،
ولما رأيتى أدار وجهه ولم يرد على ابتسامتى . ثم مضى الموكب
حتى خرج من المدينة . وهكذا خلت جانبولاد من تيمور بين
عشية وضحاها !

و بعد يوم واحد عاد السلطان علاء الدين إلى جانبولاد ، ونزل
في قصره ، ورجع الأمر إلى مستقره ، وكان لعودته يوم مشهود
أخذت فيه المدينة زيتها ففرشت له الأرض بالطنافس ، ورفعت له
الأعلام فوق البيوت — أعلام تمّ عما في القلوب من بشر

وليست أعلما تم عما في القدور من ذهب . وازدحم أهل
جانبولاد على جانبي الشارع الأعظم لتحيته ، وكنت فيمن خرج
لرؤيته ، ووقعت عيني على هودج في الموكب ، ولحت فيه (عليّة) .
ولكنها لم تكن تلك التي كنت أتمثلها في الخيال .

أين هي من (نجوى) الصالحة الباسمة ذات العينين
الناطقتين . أين هي من (نجوى) التي لا تفارقني ولا تزال توحى
إلي ؟ أين هي من (نجوى) التي لا أبرح أراها في أمة الشمس
وفي ضوء القمر ، وفي فم الزهرة ، وفي قطرات الندى فوق العصون ؟
وقد اعتراني عقب ذلك وجد غلب على نفسي ولم أستطع أن
أدرك علته أو أن أصرفه عني ، فكنت لا أخرج من بيتي إلا
إلى المسجد ثم أعود منه إلى داري . وكان كمال الدين يزورني
كل يوم ويدعوني إلى الذهاب إلى بيته فأعتل له بعذر حتى
جاءني يوماً وجعل يخملني على الخروج فقال لي : « اخرج إلى
الناس وأظهر لهم أنك لا زلت بشراً ، فقد كادوا يفتنون بك
وكما احتجبت عنهم ازدادوا فتنة » . ففتحت عيني من الدهشة
وصحت به : « يفتنون بي ؟ »

فقال : « نعم ! فهم يظنون أنك أنت الذي أخرجت تيمور من

جانبولاد بركتك وكرامتك . وكما احتجبت اخترعوا عنك
الأحاديث والمعجزات »

فتعجبت من قوله ولكن عجبى لم يلبث أن خبا وسكن ، لأن
الناس كانوا منذ القدم هكذا . لا يرضيهم أن يأخذوا الناس
كما خلقهم الله أناساً . فهم عندهم إما مردة شياطين أو بررة
أولياء . ولا يصدقون في ذلك إلا آذانهم . ولا حيلة في جعلهم
يقنعون من الناس بمرتبة البشرية — مزيج من الخير والشر
ومن الضعف والقوة . وجعلت أستغفر الله من أن أكون قد سببت
هذه الفتنة ، وعزمت على أن أخرج إليهم وأعاود فيهم دروسى ،
فالعلم وحده هو الذى يستطيع أن يلقى على الناس شعاع الحقيقة .
وقد تعمدت بعد ذلك أن أظاهر للناس ببعض ما أكره
من الخلال ، بل لقد تعمدت أن أقترف الآثام جهرة لعل الناس
يعدلون عن فتنهم بى ، فما كانت أعمالى تزيدهم إلا فتنة . كانوا
يروون آثامى تجلياً ، وحمقاتى رموزاً ، حتى عجزت عن صرفهم عن
اعتقادهم . فتركت الأمر كله ، ولم أجعله فى فكرى ، أملاً أن
يهدى العلم النفوس ويهذبها بعد حين .

وكنت فى دارى ذات مساء فسمعت طارقاً يدق الباب ،

وكنت لم أر صديق كمال الدين في ذلك اليوم، فوقع في نفسي أن يكون هو الطارق. فأسرعت لأفتح له، ولكنني دهشت عندما رأيت رجلاً لا أعرفه، وكان رجلاً حسن الوجه واللحية، عليه هيئة العلماء، وله سميت الصالحين. فرحبت به ورجوته أن يدخل. فاعتذر قائلاً: «لعلني قطعت عليك تسبيحك أيها الشيخ الصالح، فأرجو منك عفواً. ولكن مولاي السلطان قد بعثني في طلبك.» ولا حاجة بي إلى إطالة الحديث في وصف ما دار بيني وبينه فقد كان لا بد لي من رؤية السلطان. وكان علاء الدين عندي كريماً جليل القدر، فهو سلطان وطني، وعرفته الملك الصالح والسلطان البر والعالم الورع. فلم أتردد طويلاً في الذهاب إليه مع كل ما كان في نفسي من العزوف عن غرور الحياة.

ولما بلغت القصر ودخلت في رحابه، وانتهيت إلى مجلس السلطان، رأيت في حلقة من العلماء والحكماء. فانشرح صدرى لمنظره إذ لا شيء أجمل من الملوك إذا أحاطت بهم مثل تلك الهالة النبيلة. قيل إن حكيم اليونان سئل عن الحكم يوماً فقال إنه لا ينبغي أن يحكم الناس سوى الفلاسفة. ولو تأمل العاقل هذا القول لوجد أنه الحق عينه. ولو أنصف الناس لأجمعوا على تجربته،

فان الدول كانت منذ القدم لاتدين إلا لأولى القوة ، حتى
كاد الناس يعتقدون أن الحكم وقف على هؤلاء ، لا يجمل بأحد
غيرهم أن يقبض على صولجانه . بل لقد قالوا في بعض الأمثال
إن الله ايزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن . ومهما يكن من الأمر
فإنهم لم يجربوا مرة إقامة دولة على حكم الفلاسفة . وأغلب ظنى
أنهم لو جربوا مثل ذلك الحكم لاستساغوه وأقبلوا عليه ، ولم يرضوا
به بديلا . فإن الفلاسفة على الأقل يعرفون ضعف البشرية ،
وهذا يكفل لحكمهم الرحمة ، ويعرفون كرامة الإنسانية ، وهذا
يكفل لهم التطلع والتسامى . ويعرفون معنى الفناء ، وهذا يكفل
لهم الاعتدال .

وكانت لياة مباركة تلك الليلة التى قضيتها فى مجلس علماء الدين ،
لم أنصرف عنه بنحلة ، ولم أذق عنده طعاماً ، ولكنى عدت من
عنده بقلب عامر بالمعانى . ما أجمل الملوك إذا أحاط بهم الحكماء !

١٢

وجدت نفسى يوماً وقد ألفت بى المقادير فى موقف لم يخطر لى
ببال ولم يمر بى فى خيال ، إذ دعانى علماء الدين السلطان وجعل

يحدثني حديثاً طويلاً ، انتهى منه إلى أن طلب مني أن أكون وزيره ، يكل إليّ أمور جانبولاد ، ويعتمد عليّ في حكمها ونشر العدل فيها . وعرض في ثنايا حديثه بأنه يريد تقريبي منه ، لأنه يريد ألا يحرم من بركتي وكرامتي . حتى علاء الدين نفسه يصدق أن لي كرامة وبركة . ولو لم يكن من شأن هذا الحديث أن السلطان يريد أن يلتقي علي كاهلي عبثاً ينوء به ، لوجدت فيه تسلية وفكاهة . ولكن كيف يدخل الضحك إلى قلبي والسلطان يهددني بأن يجعلني وزيره لكي أدبر له أمور الناس ؟

حقاً أنني كنت أنتقد وأسخر وأضحك كلما رأيت من الحياة حماقة أو سخافة ، ولكن شتان بين أن أنظر إلى السابح في الماء وبين أن أسبح أنا في اللجة المضطربة . وكيف كنت أستطيع أن أدبر أمور الناس بعد أن أفسدهم الحكام من قبلي ؟ فإذا كان ولا بد لي من أن أكون وزيراً فلا بد كذلك من أن يأتي السلطان إليّ بالناس الذين أحكمهم . هذا طبيعي وبيدهي ، فلست أقدر على أن أخلق نفسي خلقاً جديداً ، وأقلب كل معايير القيم عندي رأساً على عقب ، حتى أقوى على أن أحكم الناس كما هم في الحياة . وإذا لم يكن في استطاعة السلطان

أن يأتي لي بناس يصلحون لحكمي ، فلا أقل من أن ينتظروني حتى أعلم أهل جانبولاد وأبصرهم وأذكيهم ، فيكونوا أهلاً لوزارتي . وأما هؤلاء الذين يضطربون في المدينة ، فإنهم لا يعرفون إلا العنف ولا يفهمون إلا القوة ، ولا بد لهم من إحدى حالتين — إما أن يكونوا فرائس ، وإما أن يكونوا مفترسين . لقد حاولت أن أعلمهم ، ولكن التعليم لا يجدي إلا بعد طول الزمن ، حتى يحرك القلوب ويفتح العقول ويهذب النفوس ، فيستعد الناس للسلام والكرامة والعدل ، والأمان الكامل في غير عنف ولا قهر . وقد يرى المعلم أثر تعليمه سريعاً في تلميذ أو في تلاميذ كما رأيت في ولدي كمال الدين ، أو في (نجوى) الصالحة . ولكن هذا نادر والنادر لا حكم له . نجوى ! ما قلبي كان يخفق كلما ذكرتها ؟ مالي كنت كلما انصرفت عنها في تفكيري رأيتها تعود إلي وتأخذ بمسالك بصرى ومسارب فكرى ؟ فهل كنت أحبها ؟ هل هذا الذي أحسسته نحوها هو ما يسميه الناس حباً ؟ فيم إنكارى هذه الحقيقة عن نفسي وعن الناس ؟ لقد طالما سألت نفسي عن ذلك الشعور وجعلت أحله وحاولت أن أسميه : أهوالذي يسمونه الحب ؟ لقد سمعت عن المحبين وقرأت من أحاديثهم طائفة في دواوين

الشعراء أو في كتب الأخبار ، ولكن هل ذلك الذى كنت أحسه فى قلبى حبا مثل حبههم ؟ حقاً كان قلبى يرف إذا رأيتها وأصعد فى سماء الملائكة إذا سمعت صوتها . وكنت أجد حديثها قبلا سلاما لا لغوفيه ولا تأثيم ، مثلما يتحدث فيما بينهم أصحاب اليمين . ولكنى كنت أرانى أقنع منها بالنظرة العابرة لا أطيلها ، وأمتلىء وحياءً من الكلمة القصيرة من كلماتها ، ويسرى فى البشر والاطمئنان إذ حبيتها عند الوداع . ولم يخالجنى ذلك الشوق المحرق الذى يتحدث عنه المحبون ولا ذلك القلق المزم الذى يصف الشعراء أثره فى أجسامهم النحيلية . فهل هذا السلام الذى كنت أحسه هو الحب ؟ وهل هذا الذى كان يحملنى إلى السماء هو الحب ؟ كانت (نجوى) تملأ كل وجدانى وفراغ روحى ، وكنت لا أجد الحياة تستحق أن أحيها إلا إذا كانت هى واسطتها . لقد شردت بى أفكارى عما كنت فيه فقد أرادنى علاء الدين على أن أكون وزيراً . ولما اشتدت حيرتى ولم أجد من الأمر مخرجاً ، استأذنته فى أن أترىث فى جوابى ، فما كان لى أن أسرع فى إجابة السلطان العظيم عفو ساعى . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد كان خطباً يسيراً إذا قيس بما هو أعظم وأدهى . فقد بعث

علاء الدين في أثرى رجلا من خواصه وأنا منصرف من القصر، فسأيرني حتى بلغت داري، فدخل معي وقضى في صحبتي صدراً من الليل، يدخل بي في شجون الحديث، حتى أفضى بي أخيراً إلى سرهمسه في أذني : يريد السلطان أن يزوجني من عليّة ابنته . عليّة ابنة علاء الدين ! أيتها الأقدار العجيبة ، أكنت تسخرين؟ ما سمعت هذه الكلمات حتى دار رأسي وكذبت أذني وكدت آخر صعباً . ولكن الرجل كان ماثلاً أمامي ينظر إليّ مشدوهاً من صمتي ووجومي واصفرار وجهي . ولا شك أنه كان ينتظر أن أقوم أمامه فأخلع عمامتي وأطير فرحاً ، ولكنني لم أفعل بل بقيت في دهشتي ووجومي . وبعد لأي استطعت أن أجمع نفسي وأن أنطق فقلت له : « هذا شرف لم أكن به جديراً ، ولم أتوقع أن تقاجئني به الأيام اقتحاما . ولا بد لي من أن أهدأ حتى أستطيع الجواب . »

فربت الرجل على كتفي وهو قائم ، وابتسم في أدب قائلاً : « ليس عليك من بأس في أن تتمهل إلى الغد ، فإن السعادة تقاجي الناس كما تقاجئهم النكبات » . ثم انصرف بعد أن انحنى في تحيته ، وشيعته إلى الباب وأنا أجرر زجلي في صمت .

وقضيت تلك الليلة مهموماً ، وتكشفت لى نفسى عند ذلك كما
لم تتكشف لى من قبل ، وزالت عنى أوهامها وغشاواتها
فأبصرتها على حقيقتها .

كنت فى شبابى أرى قم الجبال من بعيد تغطيها الثلوج
الشهباء ، وأرى أشعة الشمس تصبغها عند الغروب وعند
الشروق فتلونها ألواناً ساحرة تخلب النظر والقواد . وكم تمثلها
وتصورت ما فيها من بهاء ، وكنت أحس فى نفسى دافعاً لا يقاوم
يدفعنى إلى توكل الصخور والسمو إلى هذه القمم الساحرة ا
فأطعت نفسى يوماً وخرجت فى طلبها ، فسافرت سافراً مضنياً
تمزقت فيه أعضائى وضعف جسمى وقاسيت فيه ألوانا من
العذاب ومن التعب والجوع والبرد ، حتى كدت أهلك .
ولكنى كنت أصبر نفسى وأبتسم للأمل الذى كان يملأ قلبى كلما
تمثلت منظر القمم الجميلة . وكنت كلما ضجرت وكاد الضعف
يغلبنى وهممت بالعودة خائباً أحسست الأمانى تدفعنى وتنسينى
آلامى . فأنظر إلى أعلى نحو القمة وأمنى النفس بما لا يزال
أمامى . وأخيراً بلغت القمة وسقطت من الإعياء وخائنتنى
الأنفاس ، وكادت الخيبة تقتلنى . فقد تلفت حولى فلم أر

إلا صخوراً مثل الصخور وكهولاً وثلوجاً مثل ما مررت به من
 فجوات وثلوج . فقامت أجز نفسي وعدت أدراجي وأنا في حمى
 محرقة والخيبة تملق في وجهي ، حتى عدت إلى السهل ونظرت
 إلى القمة وأنا أتهالك على الأرض من شدة الإعياء ، فرأيتها
 لا تزال تلمع كما كانت تلمع ، وتصبغها الألوان الساحرة ، كما
 كانت من قبل تصبغها . فصحت في حنق : أيتها القمة الساخرة !
 وقد كان هذا هو الشعور الذي استولى عليّ عندما ما فارقني الرجل
 رسول السلطان وجلست إلى نفسي أراجعها .

كانت عليّة ابنة علاء الدين صورة خلافة في الخيال يخادعني
 بها قلبي ، ولكن (نجوى) كانت أمام عيني فتاة ساذجة ليس
 حولها بريق ولا زخرف . كانت نجوى تكلمني فأدرك وأحس
 فتستجيب . كانت قطعة من الحياة الإنسانية لم تجذبني بالبريق
 ولم تخدع بصري بالألوان والأوهام . فما كدت أفكر ساعة
 فيما قاله لي رسول السلطان حتى عرفت الحق ، فإذا كان زخرف
 القمة قد خدع عيني مرة فما كنت لأخدع بالقيم مرتين .

وخطرت لي عند ذلك فكرة كأنها كانت من إلهام الحق ،
 فقامت مسرعاً إلى دار صديقي كمال الدين . فلما دخلت جذبت

صديقي من يده حتى صرت معه في الغرفة ، وقلت له مبادراً بغير مقدمات : « أتزوجني (نجوى) ؟ »

وكان هذا القول بغير شك عجيبا ، ولا أدري كيف قلته . فوقف كمال الدين ينظر إليّ في دهشة وعطف ، ثم رفع يده إلى كتفي فربت عليها ، وجعل يلاطفني في الحديث حتى قال : « استرح قليلا ، حتى نشرب فنجاناً من القهوة معا ، ويذهب عنك ما يساورك من الاضطراب » .

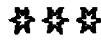
ثم جعل يسألني عن أحوالي وعمّا أزعجني فأفضيت إليه بكل ما كان من أمري . ثم قلت له : « فلا بد من زواجي (نجوى) الآن إذا كان ذلك ممكنا ، وإلا فأني لا أدري كيف السبيل إلى الخلاص من زواج عليّة ابنة علاء الدين . »

فعلم كمال الدين أن الأمر جد كله ، وأنتى لم يكن بي بأس من مرض ، ولا شر من خبال ، عند ما حدثته في أمر نجوى . فأطرق طويلا ثم تنفس وقال : « لو كان الأمر خاصاً بي لتضيت فيه راضياً » . فصحت مسروراً : « وهل كنت لأرضى برأيك حتى أسمع قولها ؟ » فقام كمال الدين مطرقاً ودخل إلى الدار ، فأبطأ فيها حيناً ، وجلست في أثناء ذلك أدير في نفسي أحاديث مختلفة

مضطربة . فماذا يكون من أمرى إذا رضيت ؟ وماذا يكون إذا أبت ؟ وماذا أنا صانع في علاء الدين ؟ وفي وزارة جانبى ولاد ؟ وهل كنت أشفق على نفسى من تحمل الأعباء ؟ أم كنت أخشى إغراء الحكم وفتنة الدنيا فيه ؟ فكم من ورع دنسه الحكم ، وكم من قديس أفسده غرور السلطان . أم كنت أخشى من العجز عن حكم الناس ؟ والسياسة كما عرفتها معاناة لأموال الخلق وانغماس فى حمايتهم ، لا يتفق فيها المثل والصورة ولا يأتلف فيها الورع والقوة . فالناس منذ كانوا ناساً ، ولا يأمن من يحكم إذا أرضى طائفة أن يسخط أخرى . والعدل مركب وعرقلما يستطيعه الناس ، وإذا استطاعه الحاكم لم ترض به كل الرعية . وما زالت الأفكار تضطرب بى فيما قرب وفيما بعد ، حتى عاد كمال الدين باسمًا وقال لى وهو يمد يده : « قد زوجتكها » .

فخطفت يده خطفًا وقلبى يرفرف مثل الطائر فى قفصه ، وقت مسرعًا ولم أتكلم بكلمة ، وسرت فى الليل أعدو حتى بلغت دارى لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، وقضيت سائر الليلة أصلى وأناجى الآمال .

ولما أصبح الصباح ذهبت إلى القصر ، ودخلت بين عمده ،
فانفرج لي صف الحرس ودخلت إلى البهو حتى بلغت مجلس
السلطان .



وهأنذا اليوم في جانبولاد . وسائر قصتي لا تخفى على أحد .
وقد صرت إمام السلطان ، أذهب كل يوم إلى مسجده الذي
بناه ليكون مدرسة لي أعلم فيه الناس مما علمني ربي في الحياة .
فأعلمهم يوماً يبالغون ما يجب لهم علاء الدين من خير في الأولى
والآخرة . وقد وهب لي السلطان بيتاً أعيش فيه مع (نجوى) ، في
طرف من أطراف المدينة ، أذوق فيه السلام بين قلبها الطاهر
وبين كتي .

وقد أحضرت ولدي عجيباً إلى جانبولاد ، فجعله السلطان خازناً
لكتبه ، وقد أرضاه حسن خطه وأعجبه بإنشاء رسائله . وأما جميلة
ابنتي فقد زوجها السلطان لوزيره الذي اخترته له ، وفقه الله
للخير كله — صديقي وتلميذي كمال الدين . وأما صديقي أبوالنور
فإنه لم يرض أن يفارق ماهوش فإنه لا يجب أن تدفن عظامه

إلا في ثراها . ما أسعد هذا الصديق الطيب ، لأنه يأخذ الناس كما يجدهم ، ولا يضيق يوماً بالحياة .

وكما أقبل المساء اجتمع عندي كل من أحب . وبعد صلاة العشاء لا أزال أجد لذتي معهم في السمر بالحديث .

وقد قصصت على أحيائي فيما قصصت هذه السيرة لتكون تسلية في ليالي رمضان . وكم تخلتها من فكاهة ، وكم قامت (نجوى) خجلة من المجلس كلما جاء في القصة ذكرها ، وكم تخابث ولدى عجيب وتندر ، وكم ضحكت جميلة وكركرت كالطير إذا غنى . ولم أكن أحسب أن ولدي يكتب القصة كل ليلة بعد انصرافه ، وينمقها بإنشائه بعد كل مجلس في خفية ، حتى طلع بها علينا ليلة بعد أن فرغت من حديثها ، ثم عرضها علي وهو يتسم ابتسامته الحبيثة الحلوة . ووجدت خطها ماشاء الله حسناً . وقد وعدني بأن يجعلها وقفاً على أهل جانبولاد ، فلعلهم يجدون فيها متعة إذ يقرأونها جيلاً بعد جيل .